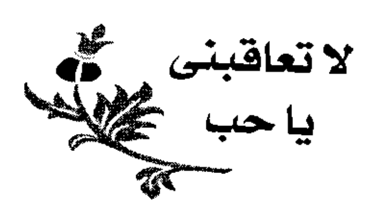

لا تعاقبنى
يا حب

روايـــة

أحمـد فـريد

لا تـعـاقـبـنـى يا حـب

النـاشـر

الدار المصرية السعودية

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

لصاحبها العقيد شيرين ثابت

اسم الكتـــاب: لا تعاقبنى يا حب (رواية)

المـــؤلـــف : أحمد فريد

سنة النشـــر : 2010 م

رقـم الإيـداع : 2010/2072

الترقيم الدولى : 6 - 011 - 472 - 977 - 978

الناشــر

الدار المصرية السعودية

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

لصاحبها العقيد شيرين ثابت

E-Mail: elmsria.alsodia@hotmaail.co.uk

www.qubaaalhadetha.com

الإدارة : 16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم

الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: 02/22621365 تليفون : 02/24025777

محمـول : 002/0123140315 - 002/0123171722

الإهداء

إليها..

إلى من عاقبها الحب بالحب.

وساومت لياليها بجراح القلب.

أحمد فريد

- 1 -

بداية الخريف لحظة فارقة تتعرض لها الطبيعة كل عام، فتهرع إلى ذاتها لأنها تعلم مع خبراتها بالماضى السحيق بأنها سوف تصطدم بواقع جديد سيحل عليها ويطبق على صدرها بلا هوادة، ولهذا كانت دائمًا ما تعطى لتلك اللحظة حق قدرها وتتأهب لها بكل أسلحتها الممكنة، وكأنها كيان عاقل يفكر ويخطط.. ويتحدى أيضًا.

بداية الخريف !!

عندما تتجمل الطبيعة كالمرأة المبهرة فى عنفوان أنوثتها. وتتحول شمسها إلى طاقة من الحنان والدفء، وتتمايل النسمات برفق بين الأغصان فتدغدغ ثمارها بنشوة تكاد تعلن عن نفسها للآخرين. وتفرز الزهور عطرها لتعبق الدنيا بروائحها العذبة والجذابة، وكأنها تحولت بالفعل إلى أنثى ساحرة الجمال.

لحظة تحد تتجمل فيها الطبيعة وترتدى أبهى ما لديها من ثياب الكون، فتشتد سواعد الأشجار وتستقيم سيقان الأزهار وتدب نبضات العنفوان فى قلب أمواج البحار.

وكأنها تكابر!!

لعل الواقع يثبت على حاله، ولعلها تحتفظ بتاج التميز بصفتها حسناء الوجود على مر الأزمنة.. ولكنها تعلم الحقيقة.. وتدرك بأن نسماتها سوف تلتهمها عما قريب عواصف وزمهرير الشتاء، وتعلم أن أوراق أغصانها سوف تتساقط قتلى بلا إرادة كما يغزو المشيب مفارق الرؤوس، وبأن شمسها الحنونة سوف تضن عليها بدفئها وهى تتوارى خلف ضباب السحاب. وتثور الأمواج وترفع راية العصيان وتكشف عن نواياها لكل من يقترب منها. تعلم وتكابر، فتتزين وتتجمل وتستدعى كل مقوماتها وإمكاناتها من أجل الأمل.. ومن أجل أن تعبر تلك اللحظة بسلام.

هكذا كان إحساس لمياء كمال وهى تقف فوق درجات السلم الخارجى للفيلا التى تتوسط الأرض الناضرة الخضراء.. ثمانون فدانًا.. ما بين أشجار المانجو الفتية وثمار الموالح التى تدلى من أغصان مثيلتها فى الجانب الآخر وشجيرات الموز المتراصة فى تناسق بديع عند الطرف الثالث والمساحات الأخرى من النباتات الطبية والأزهار المورقة التى اختزنت فى وريقاتها عبيرها الرائع الأخاذ.

وقفت لمياء تتأمل كل شىء أمامها، وكأنها تقرأ فوق أسطر الماضى أحداثًا بعيدة رافقت ذكرياتها منذ أوائل مداركها إلى أن استقرت بها فى هذه اللحظة التى تقف فيها فى انتظار شقيقيها التوأم اللذين أخبراها بحضورهما لأمر هام.

لمياء كمال ابنة الخامسة والثلاثين ربيعًا، التى حباها الله بجمال لا ينافسها فيه سوى خيال الشعراء وقوام ممشوق وكأنه انشق عن حدى جزوع النخيل الشامخة والملساء وأهداب مستقيمة تبدو وكأنها أسنة رماح تحمى بها مقلتيها السوداويتين، وشعر بلون ليل الخريف فى بدايته وبشرة وجه استقر لون الخجل فى مسامها على الدوام، كما اختارها القدر لتتحمل مسؤليات تفوق قدراتها منذ نعومة أظافرها وتقسو على طفولتها البريئة بلا ذنب اقترفته.

فوالدتها رحلت عن الدنيا وهى تنجب شقيقيها التوأم وهى ما زالت طفلة فى الثالثة من عمرها.. اضطر والدها للاعتماد على زوجات الفلاحين الذين يعملون فى أرضه لتولى رعاية التوأم من رضاعة ومتابعة صحية وكذلك تدريب ابنته الأولى على مسؤليتها الجديدة، وهو إعلان رسمى أو فرمان قهرى بسحب صلاحيات طفولتها واغتصاب براءة أحلامها لتصبح مهمتها الأساسية هى تلقى التعليمات واكتساب الخبرات لرعاية التوأم خالد ومحمود.

طفلة لم يتجاوز عمرها الثلاث سنوات.. تجد نفسها فى قلب أحداث غامضة وهى لا تدرك شيئًا فى الحياة غير أن صورة والدتها قد اختفت فجأة ولم تعد تراها إلا فى منامها وعند يقظتها الملتاعة الباكية وهى تبحث عن أمها الغائبة، فتنال جزاءها فى

الحال من زجر وضرب فى كثير من الأحيان لكى لا ترتكب تلك الحماقة مرة ثانية، وتبكى لفقدان والدتها، وكأن هذا أيضًا ليس من حقها كطفلة مختلفة عن أطفال الدنيا الذين فى مثل عمرها. الأب غارق فى بحر مشاغله ومتابعة أرض الفواكه التى تدر عليه أرباحًا طائلة كل عام، وبالرغم من ثرائه إلا أنه كان يمثل نموذجًا فريدًا للرجل الذى وهب حياته بكل تفاصيلها من أجل العمل.. والعمل فقط.. فآثر إغلاق عالمه الصغير على نفسه وأسرته، وأعلن عن دساتيره الخاصة من المحاذير والممنوعات ليصبح بلا حياة اجتماعية تمامًا. فلا أهل ولا أقارب وأصدقاء وما أقره على نفسه طبقه أيضًا بكل حزم وحسم على زوجته قبل وفاتها.. فانفض الجميع من حوله.. وانحسرت تعاملاته فقط على التجار الذين يشترون محاصيله فكان يراهم من العام إلى العام. وكان من الطبيعى أن تؤثر تلك الحياة على طبيعة شخصيته وسكن البخل وجدانه بكل أشكاله دون أن يخطط لذلك.. فأصبح بخيلاً فى مشاعره وماله وعلاقاته العامة الأسرية بلا إرادة.. بخيلاً فى أفكاره وتحركاته ومنغلقًا على ذاته.. فتحول كمال سليمان إلى إنسان آلى يشبه البشر فى بعض شئونهم.

هكذا نشأت لمياء فى ذلك المناخ الغريب، وتمضى السنوات

وتكبر معا مسؤلياتها لتتقمص دور الأم بعد أن تخلصت أو تناست دورها الطبيعى فى الحياة وحُرمت قهرًا من مشاعر الصبا ومراحلها وأيضًا من أحلام وآمال الشباب وزهوتها.

وكأن الأقدار قد توسمت فيها قدرات تفوق مسؤليتها الحالية فآثرت أن تضيف إليها مسؤلية أخرى بعد أن أصيب والدها بمرض فى عينيه أفقده الكثير من البصر والرؤية وذلك نتيجة لإصراره على رش المبيدات والكيماويات بنفسه لعدم ثقته بقدرات أحد غيره فى رعاية أحواض الزهور المختلفة التى كانت تحتل مساحة من الأفدنة غير قليلة، كان أمله الوحيد أن ينتهى ولده محمود من دراسته بكلية الزراعة لكى يتولى شئون الأرض بأسلوب علمى بعيدًا عن عيون الحسد التى تتربص به حسب اعتقاده الشخصى، ولكن.. خاب ظنه وانطفأ أمله بعد ما علم أن محمود قد أخفى عليه بأنه قد التحق بكلية السياحة بديلاً عن الزراعة. ولم تأت ثورته وغضبه ولعناته بأى جديد. فالواقع قال كلمته وكان عليه أن ينصاع للأمر رغمًا عن إرادته، وتمزقت أيضًا أوردة العلاقة الأبوية التى عادة ما تربط بين الأب وأبنائه وتفجرت الدماء منها لتفترش أرض حياته الجديدة وتنبت بعدها ثمار من اللاانتماء.. فطبيعة عمل ولده الآخر خالد كضابط بحرى تجارى جعلته يطوف الدنيا فوق بواخره

التجارية ولا يأتى إليهم إلا مرات قليلة جدًا خلال العام، وانتقل محمود إلى عمله الجديد فى أحد المنتجعات السياحية التى تبتعد عن أرضه بالغربية آلاف الكيلو مترات، فلم يعد هو الآخر يظهر لأسرته إلا فى بعض المناسبات السنوية.. فاستمر ذبول الرابطة الأسرية بينهم جميعًا وبدأت تجف معالمها وينابيعها، ومات كمال سليمان كمدًا من إحساسه بالعجز وأيضًا من إحساسه بالوحدة، حدث ذلك منذ ثلاثة أسابيع فقط.. كانت لمياء تسترجع ذكرياتها وتقرأ سطورها من فوق أغصان الشجر وأوراق الزهور وجذوع النخيل، وتارة أخرى تطلق بصرها على امتداد مساحة الأرض وكأنها تستدعى ذاكرة بعيدة سقطت من أسطر ماضيها سهوًا. وكأنها ارتضت بالمقايضة الحياتية التى تمت دون تدخل منها، حيث حرمتها الظروف من أمور كثيرة ومشاعر أكثر، وحرمتها من استكمال تعليمها الجامعى بعد مرض والدها، ولكنها فى المقابل منحتها سحر الجمال وفطرة الطيبة والسماحة.. و.. قنعت بتلك المقايضة. وها هى اليوم تنتظر خالد ومحمود لتعلم منهما حقيقة الأمر الهام.

ولم يطل انتظارها حيث حضر الشقيقان اللذان كانا بعيدين

تمامًا عن صفات وخصال التوأمة المعتادة.. فهما لا يتشابهان فى الشكل أو الملامح، كما أنهما مختلفان تمامًا فى السلوك والأفكار ولكنهما متفقان على تحديد موعد هذا اللقاء.

و.. جلس ثلاثتهم كل فى مواجهة الآخر.

سألها خالد بتودد:

- كيف حالك يا لمياء.. أرجو أن تكونى بخير.

قالت بهدوء:

- الحمد لله على كل شىء.. ولكن فى الحقيقة شعرت بالقلق عندما أخبرتنى بأن هناك أمرًا هامًا تريدان الحديث فيه معى.

تدخل محمود قائلاً :

- لا داعى للقلق.. فالأمر طبيعى وكل شىء سيتم بإذن الله على خير.

ظلت صامتة فى ترقب.. بينما بادرها خالد متسائلاً :

- يا ترى كان لديك وقت كافٍ لحصر وتنظيم كل أوراق والدنا وكل ما يخص شئونه العقارية والمالية.. فأنتِ..

ولكن يقاطعه محمود مسترسلاً :

- فى الحقيقة أنتِ التوحيدة التى تعلمين كل شىء عنه.. أما أنا وأخوك كما تدركين لا نعرف شيئًا.

أجابت بتلقائية :

- أنا أيضًا مثلكما.. لا أعرف شيئًا عن أمور والدنا الله يرحمه.. فهو كما تعلمون كان حريصًا جدًا فى مثل تلك الأمور.

تململ خالد للحظات فوق مقعده قبل أن يقول متهكمًا:

- إذا كنتِ أنت لا تعرفين شيئًا مثلنا.. فمن الذى يعرف.. الفلاحون أم الجيران؟!

رمقته بإندهاش، وقبل أن تعقب بادرها محمود قائلاً:

- خالد يقصد أنك الوحيدة التى كنتِ مقيمة معه بصفة دائمة.. وعلى الأقل تعرفين أين يحتفظ بأوراقه.

قالت بحسم :

- ولماذا لم تسألا الأستاذ عباس المحامى.. ثم هل أنتما غرباء.. فالبيت أمامكما ويمكنكما البحث عن أوراق والدنا سواء فى غرفته أو فى مكتبه.

قال خالد مؤكدًا :

- طبعًا.. طبعًا.. ولكن المسألة كنا نريد اختصار الوقت فقط.. و..

صمت برهة ثم التفت بنظرة سريعة تجاه أخيه.. ثم عاد إليها متسائلاً:

- وما قصة الأستاذ عباس المحامى هذا؟!

أجابت بثقة :

- الأستاذ عباس مهدى المستشار القانونى لأبينا وهو المسئول عن مكتب المحاسبة أيضًا الذى كان يتولى إدارة كل ما يخص أبى، ومكتبه بالقاهرة ومعى عنوانه وأرقام هواتفه.. و..

سكتت لعدة لحظات ثم أردفت متسائلة بشىء من الحيرة:

- ما الأمر.. وماذا لديكما تريدان أن تخبرانى به؟!

نهض خالد من مكانه وسار لبضعة خطوات بعيدًا عن مجلسهما، وهى تتابعه بنظرتها بتأمل وكأنها تراه للمرة الأولى.

كان خالد متوسط القامة وقوى البنيان وله شعر كثيف وعينان واسعتان، ويتميز بالاتزان وهدوء الأعصاب، عاد واستدار فى اتجاهها ثم قال دون أن ينظر إليها :

- فى الحقيقة يا لمياء هناك أمور كثيرة قد تكون غائبة عنك، والظروف هى التى حتمت علىّ أن أخفيها بسبب مواقف والدنا التى تعرفينها جيدًا.. و..

قاطعته بلهفة :

- أى أمور يا أخى؟

استطرد وهو لا يزال على حالته المتوترة قليلاً :

- مسألة خاصة.. وقد حان الوقت لكى تعرفيها.. وأرجو ألا يغضبك تعمد أخفائها عنك.. فأنا متزوج من دنماركية منذ خمسة أعوام ولدى طفلان منها هما كريم وچانا.

تمتمت غير مصدقة :

- متزوج؟

لاحقها وهو يعود إلى مجلسه :

- أجل.. تعرفت عليها فى إحدى رحلاتى العملية.. وكنت على يقين بأن والدك سوف يعترض رغبتى فآثرت إتمام الزواج لظروف خاصة بى لا داعى للخوض فى تفاصيلها .

تحولت بنظرتها نحو محمود الذى سرعان ما ردد قائلاً :

- لا .. لا .. أنا لا زلت أعزب.. فأنا لست مجنونًا لكى أسلم نفسى لهذا القيد الرهيب.. فأنا أعشق الحرية ولا أطيق أن يشاركنى أحد فيها.

كان محمود فارع الطول وملامحه تبدو أجنبية؛ فشعر رأسه يميل إلى الاصفرار ومقلتاه أقرب لزرقة السماء ويميل للفكاهة على عكس توأمه تمامًا فى كل شىء.

وبحزم مغلف بالإصرار عاد خالد للحديث قائلاً :

- على كل حال ليس هذا المهم.. الموضوع ببساطة لدينا مشتر للأرض على استعداد أن يدفع عشرة ملايين جنيه وفورًا لشرائها.. وأنا وأخوك اتفقنا على بيعها وسنقتسم قيمتها حسب شرع الله.

قالت بفزع متساءلة :

- نبيع الأرض؟!

لاحقها بلا تردد :

- نعم نبيعها.. فالمبلغ مناسب جدًا.. ثم لا أحد منا على استعداد لأن يتفرغ لها. كما أن لكل منا ظروفه ومسؤلياته.. ومبلغ كهذا سيضمن لنا ولأبنائنا حياة كريمة ومستقرة.

أجابت والذهول يفترش ملامحها :

- عن من تتحدث.. وأى أبناء وأى حياة مستقرة تقصدها.. و..

قاطعها مؤكدًا :

- أنا وأخوك ليس لدينا وقت ولا استعداد لمباشرة الأرض.. كما أننا فى حاجة لهذا المال لننظم حياتنا.

همست شاردة :



- وأنا ..

ثم نهضت واقفة وتنقلت بنظرتها نحوهما .. ثم أردفت متساءلة :

- وأنا .. ألم تفكرا فى مصيرى .. ألم يخطر فى بالكما كيف سيكون حالى بعد أن أبيع الأرض والمنزل .. إلى أين سأذهب .. ألم تنتبها أننى وحيدة بلا زوج وبلا أبناء وبلا عمل وبلا أهل أيضًا .. أهكذا بالبساطة التى تتحدث عنها تطلبان حقكما فى الحياة دون أن يشغل بالكما أمرى .. كيف ...

ومرة أخرى يقاطعها خالد قائلاً :

- المبلغ سنقتسمه بيننا حسب شريعة الله .. فما هى المشكلة إذن .. و ..

تدخل محمود فى الحديث قائلاً :

- سيكون نصيبك مليونين من الجنيهات على الأقل وربما أكثر إذا كانت هناك أموال وعقارات أخرى.

اتجهت نحوه قائلة بانفعال :

- وهل شرع الله يؤيد اقتراحكما هذا .. هل شرع الله يطلب منكما أن تتخليا عن أختكما الوحيدة بعد أن ضحت من أجلكما بكل شىء .. أختكما التى سهرت الليالى وتحملت ما لا تتحمله إنسانة فى مختلف مراحل عمرها وارتضت بألا تكمل تعليمها من أجل رعايتكما ورفضت الزواج لكى لا تترككما وحيدين من

أجل أن تستكملا تعليمكما وتصبحا رجلان لكل منكما حياته الخاصة، ثم تأتيان اليوم بكل هذه السهولة لتتعطفا علىَّ بجزء من المال وكأنه أجرى نظير خدمتكما طوال السنين الماضية.. أهكذا يقول شرع الله.. و..

وبهدوء مثير ولكنه يخفى فى باطنه ثورة مكبوتة.. أجاب خالد قائلاً:

- إذا كنت تتصورين أننا نقتسم معك جزءًا من الميراث هو بمثابة أجر لك فأنتِ مخطئة، لأن لو كان الأمر كذلك.. لأصبح من حق الفلاحات اللواتى أرضعتنا أنا وأخوك فى طفولتنا أن يقتسمن المبلغ معنا.. فأنت كان عمرك ثلاث سنوات يوم وفاة والدتنا.. فلا داعى للحديث عن التضحية، أما بالنسبة لزواجك فأعتقد أنه لم يتقدم لك أحد مناسب لمركزنا المالى.. ولم يجبرك أحد على ترك تعليمك.. و..

واندفعت فى ثورتها قائلة :

- نعم كان عمرى ثلاث سنوات ولكنى تحملت المسئولية وكأن عمرى ثلاثين عامًا.. أمى رحلت وأخذت معها طفولتى.. تركتنى لأواجه مصيرى وحدى وأنا لازلت لم أكمل مفردات الحديث والكلام، ولا زلت أترنح فى خطواتى بقدمى الضعيفتين، تركتنى وحدى أبحث عنها عندما استيقظ فجأة من نومى فلا أجد غير

وحشة الليل وضراوة الوحدة والخوف يملأ كيانى وليس لى حق الصراخ أو الشكوى. نعم كنت صغيرة، ولكنى كبرت فيما بعد وكبرت معى مسئولياتى تجاهكم جميعًا وكانت المقايضة بحياتى الخاصة كأى فتاة فى مثل عمرى.. دفعت الثمن راضية بلا تذمر، سعيدة برعايتى لكما.. مقايضة ظالمة حرمتنى من كل شىء، ومن أهم شىء.. حتى من الإنسان الذى..

وصمتت فجأة بعد أن ابتلعت الكلمات فى جوفها قبل أن تفصح عن معانيها وغابت فى نظرة شاردة انتزعتها من واقعها إلى ذكريات الماضى وكأنها حدثت لتوها الآن.

تذكرت أحمد فوزى الذى شاركها تلك المقايضة الظالمة من أجلها خاضعًا لسلطان الحب الذى تضاءلت أعظم التضحيات من أجله.

أحمد فوزى الذى كاد يطير بلا أجنحة يوم التحق بوظيفته الكبيرة كمهندس چيولوچى فى إحدى كبريات شركات البترول، وجاءها يبشرها بأنه أصبح فى حينها قادرًا على التقدم للزواج منها.. وتقدم بلا تلكؤ وبكل لهفة.. ولكنه واجه اعتراض شقيقيها بحجة أنها ترعاهما وترعى والدهم ولا يطيقون أن تبتعد عنهم إلى حيث مقر عمله بمنطقة رأس غارب.. تذكرت كيف كانت لقاءاتهما وهما يجتران حسرتهما على تلك الظروف القاسية.

ولكنه الحب.. الذى تهون عنده أغلى الأشياء من أجل الحبيب. الحب الذى يذيب كيان صاحبه ليتحول إلى صورة أخرى غير مألوفة فى خصائص البشر، فتارة يتشكل كالهواء النقى لينعم بأحضان رئتى معشوقته، أو دماءً تسرى فى عروق الحبيب لتمنحه القوة والعافية، أو نبضات تدق فى قلبه لتذكره دائمًا بحبه طوال العمر.

و.. تذكرت يوم عاد أحمد فوزى ليخبرها بأنه استقال من عمله وقرر أن يباشر أعمال أسرته فى بيع المواد الغذائية بالجملة لتجار طنطا وما حولها.. وبقدر فجيعتها بذلك القرار إلا أن أنانية الحب وأمله بأن يكون برفقة الحبيب دائمًا، جعلتها لا تنتبه أو تعمدت ألا تنتبه لقدر هذه التضحية المجنونة.. وتقدم مرة أخرى طالبًا الزواج منها ولكن الطامة الكبرى كانت فى مفاجأة رفض الجميع لهذا الارتباط بحجة أن المتقدم ليس فى مستواهم المالى.

و.. تذكرت كيف انهارت الآمال وانفجرت الأحلام لتتمزق كأشلاء متناثرة على أرض الغربة والاغتراب، وكيف جفت شرايين السعادة فى كيانها بعد أن حاول أحمد معها كثيرًا لكى يتخذا موقفًا منفردًا بعيدًا عن رغباتهم الظالمة.. ولكنها خذلته.. وقهرته.. وظلمته.. و.. رحل بعيدًا.

انتبهت مفزوعة على صوت خالد وهو يقول :

- يبدو أنك اقتنعتِ بالفكرة.. بعد شرودك الطويل مع هذا الصمت.

نظرت إليه بتأمل وقد أغرورقت عيناها بدموع الحسرة.. ثم همست قائلة:

- لم تعد تفرق!

سأل بحذر:

- ماذا تقصدين؟

أجابت وهى تنظر إلى مقلتيه :

- الحديث عن التضحيات وإنكار الذات.. لم يعد مجديًا الآن.. خاصة وأن أحد أفراد المقايضة الظالمة غير موجود بيننا.

انبرى محمود قائلاً بتلقائية :

- تقصدين أحمد فوزى!!

التفتت نحوه دون أن تتفوه بحرف واحد، بينما استطرد هو وكأنه يثبت ذاته قائلاً :

- أحمد فوزى بائع المعلبات والمواد الغذائية الجافة.. إنه..

ولكنها قاطعته بحدة قائلة :

- أحمد فوزى المهندس الچيولوچى الذى ضحى بمستقبله من أجلكما.. ولكن للأسف ضاعت قيمة تضحيته هباءً منثورًا.

قال متلعثمًا :

- هو.. هو السبب لأنه لو كان يريدك بحق لناضل من أجلك.. ولكنه بمجرد شعوره ببعض العقبات تركك ورحل.. وها هى عشر سنوات مضت وأنتِ لا تعلمين عنه شيئًا.

في هذه الآونة تدخل خالد بحزم قائلاً :

- كفى حوارات سفسطائية.. المشترى سيأتى صباح الغد ليرى الأرض على الطبيعة.. فأدعو الله أن نوفق فى تقييمها والانتهاء من موضوعها.

و.. مرة ثانية تدقق النظر إلى ملامحه دون أن تعقب على كلماته.. ثم استدارت منصرفة إلى خارج الفيلا وسارت بخطى سريعة فى اتجاه إحدى أشجار المانجو المورقة، وكأنها على موعد معها. وما كادت تصل إليها حتى وضعت رأسها على جزعها الضخم و.. راحت فى بكاء ونحيب مريرين.

- 2 -

كان صباحًا غير كل صباح.. الشمس تعانى فى الأفق من تطفل الضباب.. ووريقات الزهور تهتز وكأنها ترتجف فزعًا من لسعات الهواء البارد.. واعتصمت الطيور داخل أعشاشها. و.. الأخوان خالد ومحمود يرافقان مجموعة من الرجال الغرباء وهم يتجولون سيرًا على أقدامهم تارة، وتارة أخرى يلحق بهم سائق سيارتهم فيندسون بداخلها لتقطع الطريق ببطء فوق الممرات الخاصة التى تشق الأرض الزراعية.

بينما عيون الفلاحين وزوجاتهن تتابعهم بنظرات ملؤها الغموض والتكهنات لأسباب تلك الزيارة التى لم تحدث من قبل.

اتجهت لمياء نحو الباب بعد أن سمعت طرقات خفيفة عليه وفتحته لتجد أمامها أم سعيد المرأة العجوز التى كان لها دور عظيم فى رعايتها هى وشقيقيها منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ولهذا أصبحت تملك من الحقوق الاجتماعية عليها وعلى أسرتها كأم بديلة بعد رحيل والدتها.

قالت بعد أن أدخلتها إلى الداخل :

- أين أنت يا أم سعيد.. لم أرك منذ يومين؟!

تمتمت المرأة بطيبة وأجابت :

- يعلم الله كيف تحملت هذين اليومين بدون أن أراك .. الله يلعن المرض.

لاحقتها بصدق :

- تكونين مريضة ولا ترسلين أحدًا لكى يخطرنى بمرضك.. ألست ابنتك يا أم سعيد؟!

- أنت أغلى عندى من كل أولادى.. وعلى كل حال فأنا أتابع أخبارك لحظة بلحظة.. ولقد سمعت بعودة خالد ومحمود.

اكتأبت ملامحها دون أن تنطق بكلمة مما جعل أم سعيد تبادرها بلهفة:

- ماذا بك يا ابنتى.. أراك على غير عادتك.. هل فى الأمر شىء؟!

أطلقت تنهيدة من صدرها قبل أن تقول :

- نعم يا أم سعيد.. أنا فى كارثة ولا أعرف كيف سينتهى بى الأمر.

- أعوذ بالله.. ربنا يا بنتى يحميك من كل سوء.. لماذا تقولين ذلك؟!

جاهدت من أجل أن تخفى دموعها عنها وهى تجيب :

- يريدان بيع الأرض وتوزيع الميراث.

صاحت بصرخة مكتومة :

- كيف يفكران فى هذا.. يا للمصيبة.. و..

صمتت برهة.. ثم أردفت وكأنها صاحبة قرار :

- سأمنعهما عن هذا التصرف الغبى.. أين هما.. هل أصابهما الجنون أم ماذا!!

أجابتها بانكسار :

- لا فائدة يا أم سعيد.. إنهما خططا لكل شىء.. وهما الآن برفقة المشترى يعرضان عليه الأرض.. لقد بهرتهما الملايين المعروضة عليهما ونسيا ماذا سيكون مصيرى و..

قاطعتها مرددة :

- ومصير الفلاحين وأسرهم.. لو كان الحاج سليمان حى هل كان سيرضيه ذلك.. أهذا مقابل تضحيتك من أجلهما .. والله هذا ظلم.

- هذا حقهما يا أم سعيد.. ولكن المشكلة أنهما يصران على بيع الأرض بأكملها ثم يعطوننى نصيبى من الميراث الشرعى و.. يذهب كل واحد إلى سبيله.

ازدردت ريقها ثم واصلت :

- تصـورى يا أمى أننى اكتـشـفت أن خـالد مـتـزوج ولديه أبناء أيضًا.. إنهما يتعاملا معى وكأننى إنسانة غريبة عنهما.. فكيف سيهتمان بمصيرى!!

أجابت بغضب حقيقى :

- هما أحرار فى حياتهما.. فمنذ متى وهما يهتمان بالعلاقات الأسرية.. فكلاهما شارد منذ صغره.. خالد بالذات كان نافرًا دائمًا.. ومحمود أنانى لا يهمه إلا مصلحته.. ولكن أن يصل الأمر بأنهما يستضعفاك ويحاولان أن يفرضا شروطهما عليك.. والله ما يحدث.. نحن جميعًا معك ولن نسمح بذلك أبدًا.. إذا أرادا البيع فلهما نصيبهما يبيعا ويشتريا فيه كما يريدان.

قالت لمياء بيأس:

- المسألة لها حسابات أخرى يا أم سعيد.

و.. قبل أن تعلق أم سعيد فوجئتا بدخول خالد ومحمود وبرفقتهما مجموعة الرجال وهما يرحبان بهم بشدة وحميمية، وقد ظهر بينهم رياض بك الشريف وهو المشترى الأساسى أو صاحب النفوذ الأول من بين المجموعة التى أحاطت به وكأنهم يمثلون حراسة خاصة له.

وبحماس كبير صاح خالد متحدثًا إلى لمياء قائلاً:

- تعالى يا لمياء.. أعرفك برياض باشا الشريف رجل الأعمال الشهير.

ابتسمت بتودد وهى تقترب منهم.. فأشرقت الدنيا وابتهجت الطبيعة.. واهتزت أهداب رياض بك من مفاجأة الصورة.. وسطوة جمالها.

قالت بتأدب :

- أهلاً وسهلاً.. حضراتكم شرفتونا جميعًا بتلك الزيارة.

عاد رياض يجلس فى مكانه بعد أن استعاد يده أو كفه الذى شعر وكأنه كاد يحترق من لسعة وحرارة أصابع يدها.. ثم أجاب مشدوها :

- فى الحقيقة أنا.. أقصد نحن سعداء بمعرفتك..و..

وقبل أن يسترسل فوجئ بالمرأة العجوز تتدخل فى الحديث وتقاطعه متسائلة :

- هل حقًا جئتم لشراء الأرض؟!

سيطر الصمت فجأة على الجميع، وتبادلت العيون بنظراتها.. لحظة غموض استقرت ملامحها فوق الوجوه.

قال محمود متلطفًا :

- الحاجة أم سعيد.. إنها عزيزة علينا كلنا.

التفتت نحوه ثم قالت بعناد :

- عزيزة.. ما معنى كلمة عزيزة.. أنت خجلان تقول إننى مثل أمك يا محمود!!

حاول أن يستوعب الموقف بذكاء، وأجاب :

- أنت ست الكل يا أم سعيد.. أنتِ أمنا كلنا.

قالت بتحد أكبر :

- ألم تفكرا أين ستذهب هذه المسكينة.. و..

هنا اقترب خالد منها بخطوتين ثم قال بغضب مكتوم :

- ماذا حدث لك.. إيه الحكاية يا أم سعيد.. هل كبرتِ إلى هذه الدرجة التى أصبحت فيها تهذين بأية كلمات.

نظرت بقسوة وكأنها تتحفز للانقضاض عليه ثم أجابت :

- نعم كبرت.. ويا ليتنى ما عشت لأراكما فى هذا الموقف.. أهكذا ببساطة هانت عليكما أختكما التى ضحت من أجلكما بكل شىء لكى تصبحا رجالاً.. والله هذا عار وعيب.

قال بانزعاج حقيقى :

- انصرفى الآن يا أم سعيد.. انصرفى قبل أن أسمعك ما لا ترضينه.. و..

وهمست لمياء فى أذن المرأة.. قائلة بحنان :

- أرجوك يا أمى انصرفى الآن.. من أجل خاطرى أنا.

تحركت المرأة متأهبة للانصراف.. ولكنها توقفت عندما استوقفها رياض الشريف موجهًا كلماته لها بتودد كبير:

- انتظرى يا حاجة.. أنا لم أحضر إلى هنا لكى اشتت الجميع أو أفرق بين أحد وآخر.. أنا حضرت بناء على رغبتهما.. وعلى كل حال أنا لا زلت لم اتخذ قرارى بعد.. وأيضًا لابد وأن استشير شركائى والتأكد من سلامة الأوراق.. و..

لاحقه خالد بلهفة نابضة بالاضطراب:

- ما هذا الذى تقوله يا رياض باشا.. هذه المرأة مجرد خادمة بالأجر هى وابنها وكل عائلات الفلاحين هنا.. والأمر لا يستحق منك كل هذا الاهتمام أو الضيق.

أجابه الرجل وهو ينهض من مكانه وتبعه كل الرفقاء.. قائلاً:

- أنا لست غاضبًا يا خالد بك.. ولكنى أشعر بأننى تسببت فى أذى الآخرين دون أن أقصد.. و..

التفت نحو لمياء مستطردًا:

- وأرجو من لمياء هانم أن تغفر لى سوء الفهم هذا.

أجابت بصدق :

- أنا على استعداد لأن أغفر كل شىء لك.. ولكن.. بشرط أن يتم ذلك بعد الغداء اليوم.

كانت كلماتها كالسحر.. كل شىء تحول إلى النقيض، السعادة افترشت الوجوه والرضى استقر فى العيون والبهجة فاض عطرها على الجميع.. بينما واصلت أم سعيد خطواتها إلى الخارج وقبل أن تتصرف توقفت برهة أمام خالد ورددت :

- خادمة... خادمة يا خالد بك.. ربنا يهديك يا بنى.

حاول أن يعتذر ولكن بأسلوبه فقال:

- انتهينا يا أم سعيد.. ويمكنك البقاء معنا إلى موعد الغداء.

همست بسخرية قبل أن تختفى من أمامه قائلة :

- أشكرك يا بنى.. فأهل بيتى فى انتظارى وعائلتى هناك.

انتهزت لمياء فرصة اهتمام الجميع بموقف أم سعيد، وراحت تتأمل رياض الشريف وتختلس النظر إليه بحرص.. وجدته مفتول العضلات بالرغم من قصر قامته بعض الشىء وبأنه يتميز بالغموض وندرة الحديث والثرثرة.. وأكثر ما لفت نظرها هى أناقته الشديدة وقوة شخصيته وثقته بنفسه وساعده على ذلك كل المحيطين به، فجميعهم يحاولون استرضاءه والعمل على تنفيذ رغباته التى غالبًا ما كان يكتفى بالإشارة إليها دون الحاجة لطلبها صراحة.

كانت دعوة الغداء تلك هى الحلقة الأولى من سلسلة الحلقات أو اللقاءات التى جمعت بين أطراف العلاقة الجديدة.. مع اختلاف الأهداف.. فكل منهم لديه دافع خاص به من أجل استثمار تلك العلاقة الجديدة.. خالد يريد إنهاء اجراءات بيع الأرض حتى يحصل على الأموال اللازمة التى يضمن بها رضى وصمت زوجته التى اعتادت على غربته فى البحر وأيضًا على الاستهانة بكيانه ومطاردته المستمرة بطلباتها التى لا تنتهى.. ومحمود يرغب فى نفس الهدف ولكن لأسباب أخرى مختلفة تتعلق بحياته الخاصة مع الليالى العابثة والميول الماجنة والطموحات الشاردة فى كل الاتجاهات.. ورياض الشريف لم تعد رغبته وحرصه فى شراء الأرض بقدر إصراره ومحاولاته لاستمالة مياء واستقطاب مشاعرها، بكل الطرق والوسائل حتى ولو كلفه الأمر أن يتنازل لها عن موقع الفيلا وجزء من الأراضى المحيطة بها مقابل أن تلمح بالموافقة على الارتباط به كزوج عاشق من أول نظرة وكأنه ربط شراءه للأرض بموافقة ميّاء على الزواج بطريقة غير مباشرة ولكنها كانت واضحة من تصرفاته.. أما ميّاء فتوقفت كثيرًا أمام إغراءات الرجل وقارنتها بمواقف شقيقيها، وراحت تتأرجح بخيالها ما بين القبول والرفض للفكرة وهو ما زاد من تمسك العاشق بها وأصبح يدمن دلالها وتقطير مشاعرها تجاهه.

وفى نفس التوقيت كان الأخوان خالد ومحمود قد انتهيا من الإجراءات الشكلية الخاصة بإعلام الوراثة لإنهاء إجراءات الصفقة، وحددا موعدًا معها ليذهبوا جميعًا إلى مستشار العائلة القانونى لإتمام الاتفاق.. وفى أثناء رحلة العودة إلى ميناء حسب الموعد بدأ القلق يدب فى فكرهما بعد ما فوجئا باتصال هاتفى من رياض الشريف يطلب لقاءهما لأمر هام وأخبرهما أنه فى الطريق إلى المزرعة ليلتقى بهما.

لم يستطع محمود أن يخفى الهواجس التى تراوده.. فالتفت إلى أخيه الذى يجلس بجواره بالسيارة.. وقال بنبرة حائرة :

- ألديك فكرة عن ذلك الأمر الهام الذى يشير إليه رياض بك؟!

أجاب خالد وهو فى حالة أكثر توترًا :

- لست أدرى.. المفروض أننا كنا سنلتقى بعد إجراءات الميراث.. ولكن..

ثم رمقه بنظرة خاطفة واستطرد قائلاً :

- تراه تراجع عن فكرة الشراء.!!

ردد محمود هامسًا :

- ستصبح مصيبة بلا شك.. و..

عاد يمنى نفسه مواصلاً كلماته :

- لا أعتقد.. فالرجل منذ لقاءئنا الأول به وهو حريص بشدة على شراء الأرض، ولم يساوم مطلقًا على سعرها.

قال خالد :

- أرجو أن يخيب الله ظنى.. فأنت تعلم مشاكلى مع زوجتى منذ أن اكتشفت زواجى الثانى بامرأة أخرى غيرها مما اضطرنى لأن اكتب لها العديد من ايصالات الأمانة مقابل أن أنهى علاقتى الثانية بالطلاق.. وآه لو علمت بأننى أنجبت من الأخرى ولدًا.. من المؤكد أنها ستسعى لتدمير مستقبلى وإدخالى السجن.. و..

اتجه بوجهه نحوه مردفًا :

- وأنت تعرفها.. فهى امرأة حديدية بلا قلب ولا تتورع فى اتخاذ أية إجراءات ضدى ويمكنها أيضًا العودة إلى بلادها بأبنائى وتحرمنى من رؤيتهم إلى الأبد.. فهى حاضنة بحكم القانون والشرع.

وعلى غير المتوقع.. أطلق محمود ضحكة ساخرة وهو يقول :

- يا مسكين.. أنت فى كارثة حقًا.. ولكن..

ثم صمت برهة وهو يحاول أن يتحكم فى انفلات سخريته.. وتساءل وكأنه يحدث نفسه:

- ولكن.. ماذا لو لم يمت أبونا فى هذا التوقيت؟!!

همس دون أن ينظر إليه :

- ذلك من تدابير القدر.. وعلى كل حال نحن أمام واقع جديد يجب أن نتعامل معه ونستفيد من عطاياه.

- عندك كل الحق يا خالد.. فنحن لا نملك شيئًا حيال أقدارنا، تصور أننى أيضًا كنت فى ورطة لا يعلم نتائجها غير الله.. فأنا وضعت كل مدخراتى فى شراء أرض بالغردقة من تخصيص المحافظة على أمل أن أجد شركاء لى لبناء قرية سياحية، ومهلة التخصيص سوف تنتهى بعد شهر تقريبًا والمؤكد أن المحافظة سوف تسحبها منى.. وأفقد كل ما أنفقته عليها لأننى لم أستطع الالتزام بالمواعيد المقررة.

قال خالد متعجبًا :

- يا سبحان الله.. أتعرف يا محمود أنها المرة الأولى التى تسمح بها الظروف لكى يبوح كل منا للآخر عن مشاكله وأموره الخاصة.. وكأننا غرباء وليس توأمين.

أجاب بعد أن أطلق زفرة من صدره :

- إنها مسئوليات الحياة يا أخى.. مسؤليات الحياة، و..

توقفا بالسيارة أمام الفيلا وانتبها لسيارة رياض الشريف التى سبقتهما للموقع.. فأسرعا إلى الداخل بعد أن عاودتهما مشاعر القلق والترقب.

وازداد الموقف اشتعالاً بالغموض عندما لاحظا وجْود رجل آخر برفقة رياض يجلسان فى سكون بينما تتقدم نحوهما إحدى عاملات الفيلا وهى تحمل كأسين من العصير، وبعد أن تبادل الجميع المصافحة واتخذ كل منهم موقعه فى الجلوس بدأ رياض الحديث وهو زائغ النظر قائلاً :

- الأستاذ ناصف محامى شركاتى.

ابتسما بتودد مصطنع ولم يعقبا.. بينما أردف رياض متلعثمًا :

- فى الحقيقة كنت عاقدًا العزم للحضور بمفردى لأمر خاص بى وبكم ولكن فوجئت بالأستاذ ناصف يتصل بى ويخبرنى بشىء خارج توقعاتى، وهو ما جعلنى فى حيرة فى أمرى.. ولهذا قررت أن أرجئ الدافع الحقيقى لتلك الزيارة بعد أن أصبح الموقف غير مناسب.

تساءل خالد بتوجس :

- ماذا فى الأمر يا رياض بك؟!

التفت رياض تجاه محاميه وكأنه يحثه على الحديث من خلال نظرته الصامتة فاعتدل المحامى قليلاً فوق مقعده.. وقال بجدية:

- من صميم عملى ولصالح موكلى رياض بك، كان من الطبيعى أن أذهب إلى الجهات المختصة كالشهر العقارى وغيره للاطلاع على مستندات وعقود الملكية الخاصة بالحاج كمال سليمان.. و..

ولكنه اضطر للصمت فجأة عندما ظهرت لمياء وهى تهبط من الدور الثانى فى اتجاههم وهى تردد بعض كلمات الترحيب بالجميع.. وبمجرد جلوسها بجوار شقيقها محمود.. عاد المحامى مستطردًا:

- حسب معلوماتى التى أخبرنى بها رياض بك أن المزرعة ملك الحاج كمال والتى يرغب فى شرائها مساحتها ثمانون فدانًا.. ولكن.. فى الحقيقة اكتشفت أن المعلومة خاطئة.. فعقود ملكية الحاج سليمان تثبت ملكيته لمساحة خمسة وخمسون فدانًا فقط.. و..

وهنا قاطعه خالد بتهور :

- ماذا تقول حضرتك.. من المؤكد أن معلوماتك أنت هى المغلوطة.

ابتلع المحامى أسلوب خالد غير اللائق.. ثم تحول نحو رياض قائلاً:

- على كل حال هذا ما عندى لكى أصارح به موكلى.

تمتم محمود وكأنه يحدث نفسه :

- مستحيل يا أستاذ.. فنحن الورثة الوحيدون ونحن أدرى من غيرنا بممتلكات والدنا.. ومساحة الأرض ثمانون فدانًا بلا شك.. ولابد وأن..

وتدخلت لمياء قائلة بتأدب :

- هذه الأرض أنا ولدت فيها وعشت عمرى كله فوقها، ولم يدخلها أحد غير تجار الفاكهة والنباتات الطبية من العام إلى العام.. ومعلوماتى عن والدى أنه من المستحيل أن يفرط فى قيراط واحد منها فهو ليس فى حاجة لذلك.. بالإضافة أنها كانت بالنسبة له أغلى من حياته نفسها.

وبهدوء مغلف بالحذر قال رياض الشريف :

- علمت من خالد بك أن لديكم مستشارًا قانونيًا هو الذى كان يتولى شئون وأعمال والدكم.. ومن الصواب أن نستفسر منه. فهو حتمًا سيكون لديه أصدق البيانات والمعلومات.

نهض خالد هو يكبت ثورته.. وقال بلهجة آمرة :

- الأمر لا يحتمل الانتظار للاستفسار.. و..

توجه بنظره إلى لمياء مستطردًا :

- أنت التى تعرفين عنوانه.. سنتوجه الآن جميعًا إلى القاهرة لنحسم هذا الأمر.

و.. فى دقائق قليلة كانت السيارتان تقطعان الطريق فى اتجاه القاهرة.

كان الذهول قد سيطر على ملامح الأشقاء الثلاثة، والشرود يعبث بأفكارهم ولا شىء يشق الصمت غير بعض الكلمات كالهذيان تفلت من شفاههم بلا ترتيب أو معنى محدد.

.. هذا المدعو ناصف لابد وأنه مخرف!

.. هذا أمر لا يقبله منطق أو عقل!

وتحاول لمياء أن تتخلص من قبضة ذهولها وهى تردد:

.. مستحيل. أنا متأكدة أن هذه المعلومة خاطئة.

ساعتان من الزمن القاسى، تحولت عقاربها وكأنها سياط عنقودية راحت تضرب بشراسة فوق أوردة وشرايين أجساد الأشقاء الثلاثة.

وأخيرًا.. وصل الجميع إلى حيث مكتب المستشار عباس مهدى بمنطقة الدقى واستقبلهم الرجل بترحاب وهو يقدم للأخوة تعازيه لوفاة والدهم.. ولم يتمالك خالد زمام اتزانه.. وبادره قائلاً بترقب وجفاء:

- جئنا من أجل استلام الأوراق والمستندات والعقود الخاصة بالمرحوم والدنا وأيضًا للاطلاع ومعرفة كل شىء عن حساباته وأرصدته فى البنوك.

قال الرجل بوقار شديد يتناسب مع منصبه وهو يتوجه بحديثه لخالد ومحمود:

- بالرغم من أن التوقيت غير مناسب لكلماتى هذه.. إلا أننى سعدت برؤياكما وبمعرفتى بكما.. فأنا فى الحقيقة لم أتشرف بلقائكما طوال السنوات الماضية.

همس محمود فى محاولة للتودد :

- ونحن أيضًا سعداء بلقائك.. والحقيقة أن ظروف عملنا أنا وأخى كانت تحول دون التشرف بلقائك فى السابق.. وعلى كل حال قدَّر الله وما شاء فعل.

وتدخل خالد مرة ثانية قائلاً بحماس :

- وإن شاء الله حضرتك ستظل معنا إلى أن ننتهى من إجراءات الميراث.. فنحن لا نعلم شيئًا عن حسابات أبينا.

أومأ عباس مهدى برأسه إيماءة خفيفة دون تعليق.. ثم استدعى أحد معاونيه وطلب منه كل الملفات التى تخص الحاج كمال سليمان.

وراح يتفحص الأوراق أمامه لعدة دقائق.. ثم قال بحسم :

- بالنسبة لميراث الأرض فالخمسة والخمسون فدانًا ستوزع عليكم حسب الشرع بصفتكم الورثة الثلاثة الوحيدين.. و..

قاطعه محمود بانزعاج :

- خمسة وخمسون فدانًا.. كيف هذا.. الأرض ثمانون فدانًا يا سيادة المستشار.

رمقه بنظرة صامتة فى البداية.. ثم قال بجدية :

- ملكية الحاج كمال للأرض فى حدود الخمسة وخمسون فدانًا.. و..

تناول بعض الأوراق من الملفات التى أمامه.. ثم أردف قائلاً:

- هذا عقد بيع وشراء بأسم سعدية عبد العزيز يثبت ملكيتها لخمسة أفدنة فى الجانب الشرقى للأرض ومسجل منذ ثلاثين عامًا.

و.. تناول أوراق أخرى وواصل كلماته :

- وهذا عقد آخر بالبيع والشراء باسم الآنسة لمياء كمال سليمان يثبت ملكيتها لعشرين فدانًا التى تقع فوقها الڤيلا ومسجل منذ عشر سنوات وأما أرصدته فى البنوك فهى أيضًا موضوعة تحت حساب يخص الآنسة لمياء ابنته وهى صاحبة التصرف الوحيد فيها بعد وفاته.

وكأن الحياة قد تيبست فجأة. لم يعد شىء ينبض فيها.. كل شىء تحجر فى الأبدان حتى الذهول تسمر بين الجفون.. لا شىء يتحرك سوى شفاه عباس مهدى الذى راح يسترسل فى حديثه مستعينًا بالمستندات التى بين يديه.. ثم اختتم كلماته بتلقائية وحزم قائلاً:

- والآن قد أديت مهمتى حسب وصية المرحوم وأيضًا ما يؤيده القانون الوضعى وجميع الرسالات السماوية.. ولم يتبق غير أن أعلن أمامكم بأننى قررت بعد وفاة الحاج كمال أن اسحب مسؤلياتى تجاهكم ولم يعد المكتب مسئولاً عن أية تصرفات تتخذونها وأنصحكم بالاستعانة بمحام آخر غيرى لأسباب كثيرة من أهمها هو أننى أصبحت مسنًا ولن أستطيع مواصلة عملى فى مجال المحاماة والاستشارات القانونية كما سبق.

بدا محمود وكأنه أكثرهم تحملاً للمفاجأة عندما التفت نحو لمياء متسائلاً:

- من هى سعدية عبدالعزيز تلك!!

وبصعوبة بالغة أجابت لمياء باقتضاب :

- هى أم سعيد.

فوجئت بخالد يرمقها بنظرة متشككة قبل أن يسألها بنبرة غاضبة:

- هل كنت تعلمين بكل هذه الإجراءات.. و..

قاطعته بإضطراب قائلة :

- ابدًا.. فأنا مثلكم فوجئت بكل هذا.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة تقطر سمًا.. ثم أردف قائلاً:

- هل تسخرين من عقولنا.. كيف تمت كل هذه الإجراءات من بيع وشراء دون علمك.. لم أكن أتصور أنك تملكين كل هذه الموهبة فى فن التمثيل.

تدخل عباس مهدى فى الحديث مؤكدًا:

- آنسة لمياء لم تكن تعلم بالفعل بهذه الإجراءات.. فأنا حصلت على توكيل منها منذ عشر سنوات بناء على رغبة والدها المرحوم وهو الذى أصر على أن لا أخبرها بشىء من كل هذا.

وهنا التفت نحوه خالد وقال بغيظ مكتوم :

- إنها مؤامرة.. مؤامرة تمت بينكم أنتم الثلاثة.. وأنت رجل غير أمين وأيضًا لص وسافل.. و..

وبلا مقدمات انقض خالد على عباس مهدى وراح يكيل له اللكمات وهو يصرخ مرددًا :

.. سأقتلك يا نصاب.. سأقتلك يا نصاب.

وازدحم المكتب بكل العاملين به من المحامين والمحاسبين فى محاولة منهم لإنقاذ المستشار من يد ذلك الثائر كالثور الجريح الذى أحكم قبضته على عنق الرجل وهو لا يزال فى صراخه.

.. يا سافل.. لن أتركك قبل أن تقول الحقيقة.

و.. ظهرت الحقيقة.

فالرجل مات.. فارق الحياة من هول الصدمة.

وتجمهر الجميع حول خالد وانتزعوه بقوة ليخلصوا الجثة الهامدة من قبضة يده التى تشنجت حول عنق الرجل.. وعلت الصيحات من كل جانب:

.. لقد مات المستشار .

.. قتلته يا مجرم.. استدعوا الشرطة.

.. امسكوا به لكى لا يهرب.

بينما تصلبت لمياء فى مكانها وهى ممسكة بالملف الذى أعطاه لها القتيل قبل دقائق وكل خلجة فى كيانها ترتجف فزعًا ورعبًا. حاولت الصراخ ولكنها لم تستطع شعرت بالشلل يصيب جسدها وبالعجز التام عن تحرك شفاهها. وانتحى رياض الشريف جانبًا برفقة محاميه فى الطرف الأخير من الغرفة يراقبان الموقف فى

ذهول.. و.. اختفى محمود وكأنه فقاعة هواء انفجرت فجأة وتلاشت فى الفضاء الخارجى.

ساعات طويلة مضت فى قسم الشرطة.. تم التحقيق مع الجميع.. وشهد الجميع ضد خالد ذلك القاتل الثائر.. وروت لمياء مآساتها وهى غير قادرة على التوقف عن البكاء من أجل شقيقها.. وقال رياض الشريف ومحاميه ما لديهما من أقوال وأكدا للمحقق كل ما حدث.. و.. تم القبض على خالد كمال سليمان بتهمة القتل أثناء المشاجرة.. وأفرج عن الباقين بعد أن تعهدوا بتواجدهم أمام النيابة فى حالة استدعائهم.

الحادية عشر مساء.. وقفت لمياء أمام الباب الخارجى لقسم الشرطة منهكة القوى تمامًا، تكاد تترنح من شدة الإرهاق.. عشر ساعات من التحقيقات. وقفت تتلفت حولها.. شعرت وكأنها وسط صحراء مخيفة ومظلمة بالرغم من كثرة المارة وحركة السيارات والأصوات الضوضائية من كل جانب.. إلا أنها كانت تشعر بأنها الوحيدة التى تقف وسط ذلك الفراغ المفزع.

ها هى القاهرة التى تراها لأول مرة.. استقبلتها بأحضان الغربة والألم والقسوة والمأساة.. رائحة الموت تفوح من حولها.. والأجساد كالأشباح المرعبة تمر من أمامها والخوف يملأ أعماقها

والدموع تحجب عنها الرؤية. ها هى القاهرة التى طالما تمنت أن تزورها طوال رحلة حياتها، اختطفت منها أمانها وأخيها وأحلامها.. وتركتها وحيدة تجاهد من أجل أن تخطو خطوة واحدة للأمام.

تنبهت إلى أن عليها أن تعود إلى بلدتها.

همست إلى نفسها وهى تحتضن الملف إلى صدرها :

.. القطار.

أشارت إلى سيارة أجرة وطلبت من سائقها التوجه بها إلى محطة القطار.

ازدادت توترًا عندما تمتم السائق قائلاً:

- عساك تلحقى بقطار الاسكندرية.. فأمامنا ساعة فقط.

و.. لحقت به واستقرت فوق مقعد منفردة لا يقابلها إلا مقعد آخر يجلس عليه رجل منشغل بقراءة صحيفة فى يده.

وضعت الملف فى الرف العلوى ثم اسندت رأسها على نافذة القطار المغلقة وهى لا تدرى أنها لا زالت تحتفظ بنظارتها الشمسية فوق عينيها.

دقائق قليلة .. وقهرها النعاس والارهاق.. ونامت.

بينما كان الرجل الذى يقابلها فى المقعد يختلس إليها النظر

ما بين الآونة والأخرى وهو لا يدرى إن كانت مغمضة العينين أم لا..
كل ما آثار انتباهه هى قطرات الدموع المتلاحقة والتى كانت تنساب
إلى وجنتيها دون أن تحرك ساكنًا.. وهو ما أتاح له الفرصة لأن
يتأملها بعد أن طوى الصحيفة وتأكد أنها مستسلمة للنوم أو للإغماء.

بهره ذلك الجمال الملائكى الهادئ، والوجه الصبوح الباكى،
والغموض المثير الساكن.

استغرق مع تساؤلاته المبهمة فى صدره عن حقيقة أمر تلك
الفتاة المثيرة التى تخيلها وكأنها قطعة من قرص الشمس قد حفت
فى طريقها جزءًا من ضوء القمر ثم سقطت من فضاء الكون لتستقر
فوق المقعد أمامه وقد بللت السحب وجنتيها فى أثناء رحلة الهبوط.

وقبل أن تمضى الساعة بقليل، اضطر مسرعًا لأن يستعيد
الصحيفة مدعيًا مواصلة القراءة عندما لاحظ تحرك لمياء بعد أن
أفاقت من نومها أو غيبوبتها، وتنبهت لنظارتها الشمسية فرفعتها
عن عينيها ورمقت عقارب ساعة يدها و.. تأهبت لمغادرة القطار
وما أن استقر القطار فى محطة طنطا سارعت بالنهوض وهى
ترمقه بنظرة سريعة وكأنها تتأكد من أن لا أحد قد لاحظ بكاءها
الصامت واستراحت بعد أن تأكدت أن الجالس أمامها لا يزال
غارقًا مع أسطر الصحيفة التى بين يديه.

وتحـرك القطار مـرة ثانيـة فى اتجاهه إلى الإسكندرية بعد أن غادرته.

غادرته بعد أن تركت خلفها العديد من التساؤلات الحائرة فى صدر الشاب وأيضًا أحاسيس غامضة تشبثت بوجدانه وكأنه افتقد فجأة شيئًا غاليًا فى حياته.. وهو لا يجد مبررًا لذلك الشعور الذى داهمه دون مقدمات.

وازداد الأمـر إثارة بالنسـبـة إليـه، عنـدمـا وصل إلـى مـحطتـه بسيدى جـابر ونهض يتناول حقـيبتـه السـامسـونيت من فـوق الرف فـأكـتـشـف أن الفـتـاة قـد غـفلت أن تـأخـذ الملف الخـاص بهـا والتى وضعته بنفسها عندما استقلت القطار منذ ساعتين.

وبلا تردد.. وبلا قـرار.. وجد نفسـه يتناول الملف ويضـمـه إلى حقـيبتـه واتخذ طريقـه مغادرًا القطار وهو مسـتسلم تمامًا لتلك المشاعر الغريبة التى هاجمت أعماقه.

- 3 -

عندما تتوحش الأحلام!!

تتحول الأمانى الوردية إلى كوابيس دموية، تتناحر الأفكار ويختل الوجدان وتتهاوى الأقنعة من فوق قمم الحقيقة، وتكشف عن نفسها الأسرار وأيضًا تهترئ الروابط وتتهش الكلمات أحرفها وتصاب المعانى بالهذيان.

عندما تتوحش الأحلام!!

تتعملق الخديعة وتتعالى الوضيعة وتفوح رائحة الرذيلة من أوراق الزهور وعرق الأبدان.. ويصبح الكيان الآدمى بلا إنسان.

كانت الأحداث تتلاحق كالشلالات، لا أحد فى استطاعته إيقافها، الجميع اختلت مفاهيمه واختلفت أسانيده.. أدانت التحقيقات خالد كمال بتهمة الضرب أثناء المشاجرة الذى أفضى إلى الوفاة، وأصبح فى انتظار حكم القضاء بالسجن على أقل تقدير. وعاد رياض الشريف يحوم حول لمياء الوحيدة وهو يحرص على استمالة مشاعرها بعروضه المغرية، وتحول محمود إلى همزة الوصل بين المشترى وشقيقته على أمل أن تخضع لرغبته فى الزواج

منها، فالمقابل قد يعيد الأمور إلى واقعها السابق، مستندًا على أن المنطق يفرض نفسه بأن ما حدث قد حدث وعلى الإنسان ألا يتوقف كثيرًا أمام أزماته.

ولكن لمياء لم تكن مؤهلة نفسيًا للتحاور مع أحد غير ذاتها.. وكأن الحقيقة المجردة قد أيقظتها من غيبوبة الإنسانية ونسمات الرومانسية، واختلفت رؤيتها للأشياء عما كانت عليه سابقًا.. معانى كثيرة سقطت من قاموس مفاهيمها أو أسقطتها عمدًا.. المشاعر تحجرت والانتماء بات ذكرى من ذكريات الوهم الجميل والحنين الأسرى تهاوى فى أعماق غربة الوجدان.. باتت كالصورة الورقية التى لا حياة فيها أو نبض. و.. فى لحظة استثنائية وجدت نفسها مضطرة لأن تتعامل مع واقع آخر غير واقع أعماقها وذلك عندما ظهر لها غريب القطار الذى جاء يسلمها الملفات الخاصة بها التى فقدتها يوم حدوث الكارثة.

قدم نفسه إليها متأدبًا وهو يقول :

- أنا أيمن فريد.. اعتقد أن هذه الأوراق تهمك، فلقد وجدتها بجوار حقيبتى الخاصة فى القطار .

أشرق وجهها بتلك البشرى فدعته إلى الدخول قائلة بابتسامة تشبه قبلة الحياة:

- أهلاً أيمن بك.. حضرتك أنقذتنى من حيرتى الشديدة.. فتفكيرى قد عجز تمامًا عن إيجاد تصرف مناسب أمام هذه المشكلة.

أجاب وهو يواصل خطواته إلى داخل الڤيلا :

- فى الحقيقة طريقة استقبالك لى الآن هى التى انتشلتنى من عناء تأنيب الضمير بسبب تأخرى للمجىء إليك.. ولكن يعلم الله أننى كنت فى ظروف قاهرة اضطرتنى للبقاء فى الاسكندرية إلى أن انتهت والحمد لله.

قالت وهى تجلس أمامه :

- إن شاء الله يكون المانع خيرًا، وأن تكون حضرتك وأسرتك الكريمة بخير.

قال بتلقائية :

- الحمد لله.. فقد تعرض أحد العاملين عندى فى المصنع لحادث سيارة فاضطررت للبقاء بجواره بالمستشفى لمتابعة حالته وأيضًا ظروف عائلته حتى شفى تمامًا واطمأننت عليه فقررت أن أحضر إليك.. وعلى كل حال أرجو أن تقبلى اعتذارى.

همست إلى نفسها مرددة :

.. تحرص على بقائك بجوار أحد عمالك بالمستشفى لتطمئن

عليه.. وأنا.. أشقائى يتسابقون للخلاص من مسؤلياتهما تجاهى.. وتصل المأساة لحد القتل.

و.. أجابت بنبرة هادئة:

- أنا التى يجب أن تقبل اعتذارى.. فكفى ما عانيت حضرتك لكى تصل إلى هنا فأحد غيرك قد لا يهتم كثيرًا بأمر إنسانة لا يعرفها.

أجاب وهو زائغ النظر بعيدًا عنها، وقال مترددًا:

- أزعم أننى عرفت أن تلك الإنسانة تمر بمشكلة ما فى حياتها.

حملقت فيه بدهشة ولم تستطع أن تعقب على كلماته، بينما أسرع هو مسترسلاً وقال بارتباك:

- أنا آسف.. ولكن فى الحقيقة أنا رأيت دموعك وهى تسيل من وراء نظارتك وأنت مستغرقة فى النوم أمامى.. و.. آسف مرة أخرى لتطفلى فيبدو أننى لم أحسن التعبير.. أقصد.

ولكنها قاطعته ببشاشة قائلة :

- لا داعى لكل هذا التبرير.. فأنت محق فى توقعاتك. ولكن دعنى أنا اتطفل عليك بالفعل وأسألك عن نوعية إنتاج مصنعك.

قال بعد أن انفرجت أساريره:

- العطور.. فأنا أملك مصنعًا لإنتاج العطور العالمية ولدى بعض التوكيلات من الشركات الأصلية.. بالإضافة لقسم خاص عندى لتصديرها لدول كثيرة.

أجابت بصدق :

- رائع.. فوالدى رحمه الله عليه كان يخصص جزءًا من الأرض لزراعة الزهور الطبيعية وكان التجار والوسطاء يهتمون بشراء المحصول لجودة وندرة أنواعه.

وبلهفة واضحة أسرع قائلاً :

- إذا كان القدر قد هيأ تلك المصادفة.. فهل أطمع بأن ألغى دور الوسطاء وأحل مكانهم من أجل مصنعى!!

أجابت مؤكدة:

- اعتبر أن التعاقد بيننا قد تم بالفعل.. ولكن عليك أولاً رؤية أنواع الزهور على الطبيعة.. فمساحة الأرض المخصصة لذلك هى خمسة أفدنة وقد آلت ملكيتها لسيدة عظيمة اعتبرها بمثابة أمى.

قال بشغف:

- الآن من فضلك.. إذا كان وقت حضرتك يسمح بذلك.

و.. كأنهما تعمدا بألا تفلت منهما فرصة ذلك اللقاء، حتى ولو كان لقاءً بين الغرباء.

وتعددت اللقاءات ما بين انبهاره بإنتاج الزهور وانبهاره بها هى شخصيًا وهى أيضًا يومًا بعد يوم استسلمت لمشاعر الطمأنينة تجاهه ولم تجد غضاضة فى أن تبوح له ببعض معاناتها والكثير عن مشاكلها التى حطت عليها منذ وفاة والدها المفاجئ.. تحدثت طويلاً واستمع هو كثيرًا.. وجاءت الفرصة لكى تعلم عنه كل ما يمكن أن يعلمه الأصدقاء عن بعضهم لبعض.

كان أيمن فريد طويل القامة، فى الأربعينيات من عمره، حباه الله بشخصية مهيبة تستحوذ على الأنظار بمجرد ظهورها وقد تزين رأسه بشعر لونه يقترب من لون الفجر عند بزوغه وزادته نظرة عينيه المتأملة وقارًا ملفتًا لكل من يتعامل معه.. وعلمت عنه أيضًا بأنه أعزب بسبب طول رعايته لوالدته المريضة والتى توفيت منذ عامين ولم تتح له الظروف تكوين أسرة تخصه. وأنه كان وحيدها بعد وفاة أبيه فى ظروف تكاد تشابه ظروفها، فقد كان عمره لا يتجاوز العامين وتولت والدته رعايته بعد أن رفضت فكرة الزواج من أحد غير أبيه.

وتحول لقاء الغرباء إلى لحظة صدق وكأنها احتوت فى زمانها سنوات طويلة قد يحتاجها غيرهما لتوطيد صداقاتهم مثلهما.

ولأول مرة فى حياة لمياء تجد نفسها فى موقف يحتم عليها اتخاذ قرار.. فهى لم تعتد طوال رحلة عمرها أن تكون مصدرًا لأى قرار.. فكيف الآن لفتاة ظلت مهمشة أكثر من ثلاثين عامًا أن تتصدى لسيل الرغبات المختلفة لجميع من حولها.. كيف تجرؤ على أن تبوح برأيها أو تعلن عن رغبتها. كان عليها أن تخلع عن كيانها رداء الخنوع والخضوع.. عليها أن تستجمع شجاعتها المقهورة وتلملم شتات إرادتها التى مزقتها السنوات الماضية وأن تفصح للآخرين بأنها أصبحت لمياء غير التى كانت.

وهى لا تدرى من أين استمدت تلك القوة التى استقرت فى صدرها وهيمنت على عقلها.. هل كانت دوافعها ناتجة من صدمتها الشديدة فى موقف شقيقيها أم إحساسها بالوحدة وخشيتها من أن يفتضح أمر ضعفها وقلة حيلتها أمام الآخرين.. أم بسبب إحساسها بأنها قد تكون شيئًا مهمًا أو أصبحت كذلك خاصة بعد إلحاح شريف رياض وملاحقتها.

كانت لا تدرى بأن لقاءات غريب القطار المتتالية وحوارتهما المتصلة استطاع عن غير عمد أن يثبت فى نفسها الثقة وأن يشعرها بأنها ليست وحيدة، وبأن هناك من تلجأ إليه إذا واجهتها أية مشاكل طارئة. ولكنها فى النهاية أصبحت هى مصدرًا للقرار.

وكان قـرارها يرفض فكرة البـيع مطلقًـا وألا تتنازل عن حقـهـا فى الميراث المتبقى من الأرض، وأعلنت استعدادها لمواجهة الجميع.

وكان أول من تلقى صـدمـة القـرار هو شـقـيـقـهـا مـحـمـود الذى تهاوى حلمـه بشكل مفـاجئ بعد محـاولاته المضنية معها لكى تتراجع عن قـرارها، خـاصـة وأنه قد استـطاع فى الفـتـرة الأخـيـرة أن يوطد علاقته بقوة بـرياض الشريف مستغلاً رغبة الآخـر فى الارتباط من ميـاء.. وباءت كل مـحـاولاته بالفشل، وكان عليه أن يبـحث عن سـر ذلك التغيـر فى شخصية شقيقته ولم يجد تفسيرًا أقرب إلى الواقع غير ظهور غريب القطار المدعو بأيمن فـريد الذى ظهر فى حياتها مؤخـرًا، وكـانت المفـاجـأة الأعـمق قـسـوة عندمـا حـاول أن يثنيـهـا عن تلك العـلاقـة فـاصطدم بموقـفـهـا المثيـر عنـدمـا صـاحت فى وجـهـه قائلة بانفعال:

- من الذى أعطاك الحق للتدخل فى حيـاتى.. بل منذ متى وأنت أو غيرك كان يهمه أمرى.

كـانت تلك الكلمـات القليلة كافـيـة تمامًـا لأن تكشف عن مـدى التـغـيـر الذى طرأ علـى شـخـصـيـة ميـاء، وأدرك بأن الأمـر قد يزداد سوءًا لو استـمـر فى محـاولاته معهـا فقـرر هو الآخـر الرضوخ للأمـر الواقع مضطرًا.. وصمت.

ولكن الأمر كان مختلفًا عند رياض الذى كشف عن نواياه بأنه على استعداد لأن يفعل أى شىء أو يقدم كل التنازلات مقابل أن ينال غايته بالزواج من حسنائه وأدرك بخبرته أن محمود هو ذلك النوع من الرجال الذى يمكنه أن يتنازل عن الكثير من تكوينه الشخصى مهما كان المقابل سواء من كرامته أو نخوته أو مبادئه أو علاقاته الإنسانية والأسرية من أجل تحقيق رغباته فقط.

وفى أول لقاء منفرد تم بينه وبين محمود بادره رياض قائلاً بدهاء:

- كنت أتمنى أن تتوطد علاقتى بكم جميعًا.. وأن تسير الأمور كما كنا نرغب ونحقق كل أحلامنا كأسرة واحدة.. ولكن يبدو أن الواقع يعاندنا.

رمقه محمود بنظرة تغشاها الحسرة.. ثم همس يائسًا:

- لا أعرف سببًا لكل هذا الخراب الذى حل علينا.. و..

صمت للحظة ازدرد فيها ريقه ثم أردف قائلاً بغيظ مكتوم:

- ولست أدرى أى شيطان هذا الذى تسلل إلى أعماق لمياء واستطاع أن يغير من طبيعتها الآمنة والقانعة!!

قال رياض متظاهرًا بالتقوى :

- أعوذ بالله من شياطين الدنيا.. وعلى كل حال يا أستاذ محمود

الإنسان المؤمن لا يجب أن يستسلم لشرور الشيطان وعليه أن يقاومه وأن يقهره.. ولذلك فأنا فى سبيل الاحتفاظ بعلاقتى بكم واعتزازى الشديد بتلك العلاقة، ورغبتى الشريفة فى سعادة الآنسة لمياء.. فأنا أفكر فى طريقة ترضى كل الأطراف وتحقق رغباتنا جميعًا مهما كلفنى هذا الأمر من خسارة أو تنازلات.

وكأنه طوق نجاة قد ألقى لغريق يقاوم دوامات الغرق.. صاح محمود متلهفًا:

- أحقًا لديك حل.. أقصد هل توصلت لفكرة ما.. نحن أيضًا جميعًا نعتز بعلاقتنا بك، ومن الصعب أن نفرط فيها.. و..

قاطعه بهدوء قائلاً:

- أنا أفكر فى أن استأجر الأرض المتبقية من ميراثك أنت وخالد بك.. فهذا أمر يجعل تواجدى بينكم مشروعًا وبدون تطفل.

عادت أسارير الكآبة تفترش وجه محمود وقال بتبجح بلا وعى:

- أعتقد أن هذه الفكرة تحل مشكلتك أنت وحدك فقط.. أما..

فقاطعه مرة ثانية وهو يتقمص الطيبة التى تقترب من السذاجة:

- لقد وعدتك بأننى لن أتخلى عنكم مهما حدث.. فأنا قررت أن استأجر نصيبك من الميراث وكأنى اشتريته وسأدخل معك شريكًا فى مشروعك السياحى بهذا المبلغ.. وسأفعل ذلك أيضًا مع خالد بك.

أجابه بسعادة بالغة وقد ارتعشت شفتاه من المفاجأة قائلاً وكأنه يحدث نفسه :

- سأذهب لخالد وأخبره بهذا النبأ السعيد.. تراه سيقبل.. و..

ضرب كفه على جبينه وكأنه يوقظ نفسه من غيبوبة مفاجأة واستطرد قائلاً:

- كدت أنسى.. فغدًا موعد الحكم فى قضيته.. أتمنى أن يتخذ قرارًا عاقلاً ويقبل.

عاد رياض إلى وقاره وهو يقول مؤكدًا:

- هو حتمًا سيقبل.. فهو فى حاجة شديدة للمال بعد أن سمعت ما حدث من زوجته الأجنبية التى بدأت تلوح له بإيصالات الأمانة وقررت أن تستخدمها ضده بعد ما تأكدت من دخوله السجن.. فسأتولى أنا أمرها وأسدد عنه الدين حتى لا تتضاعف عقوبته.

وهنا لم يتمالك محمود مشاعره وانقض عليه يضمه إلى صدره بقوة وراح يمطره بالقبلات مرددًا:

- أنت أخى بحق الذى لم تلده أمى.

واستغرق الاثنان فى عناقهما الذى تجرد من المشاعر.. وكأنه عناق الأفاعى.

- 4 -

فرق كبير بين أن نعيش الواقع وبين أن نتأمله!!

نعيشه ونتعايش مع أحداثه بكل ما فيها من نجاح وفشل.. أفراح وأحزان، لقاءات أو وداع.. نتلقى مفاجاءته ونستقبل تغيراته مهما أساءت لنا أو ساندتنا فى حياتنا، وفى النهاية لا يملك أحد سوى التعامل معه وإقراره.

ولكن.. أن نتأمله ونبحث عن أسباب أحداثه ودوافعها، وأن نعتلى منصة قيادته وأزاحة ستار الغموض عن مبرراته.. فذلك هو الاختيار الأصعب. واختارت لمياء لحظة التأمل.

عزلت نفسها فى غرفتها، وراحت تجتر ذكريات ماضيها بكل أحداثه، وكيف كشفت الحقائق عن نفسها وتخلت عن كل الأقنعة التى طالما أخفت عنها الكثير والكثير.

ثلاث ليال أمضتها وكأنها تمر بمرحلة تطور لا إرادى من حال إلى حال، فأصبح الكيان غير ما كان والوجدان غير الوجدان، بأعماق غريبة ومشاعر تقوقعت داخل شرنقة التبلد واللامبالاة.

وأعلنت لنفسها بوضوح أن لا شىء يستحق.. وذاتها هى الأحق.

وظهرت لمياء الجديدة لتستقبل أول ما تستقبل نبأ الحكم على شقيقها خالد بالسجن ثلاث سنوات، وكأنها تسمع عن إنسان يقطن فى الطرف الآخر من الكرة الأرضية قد قرر الذهاب إلى نزهة رائعة.

وبدأت أولى خطواتها مع الكيان الجديد، وبإصرار يتشح بالعناد من أجل استقطاب أكبر قدر من الأقرباء الذين باعدت الظروف بينهم وبينها بسبب موقف والدها وما أكثرهم وأيضًا ما أسرعهم فى تلبية رغبتها فلكل منهم أسبابه وأهدافه.. يجمعهم الفضول والأطماع والاندهاش.

واختلط الغريب والقريب وهم فى نظرها لا يمثلون أكثر من مجرد كائنات متحركة تملأ بهم فراغات حياتها الاجتماعية.

وأنهار جدار الوقار الذى كانت تحتمى به الڤيلا وأصبحت ملتقى للسهرات الماجنة وليال الصخب واللامبالاة لأى تقاليد أو أعراف سابقة.

وكأن برحيل الحاج كمال سليمان قد رحلت معه كل المحاذير الاجتماعية وتحطمت بعده كل القيود الريفية وغير الريفية.

وجاءت لحظة الاختبار التى تجاوزتها بثقة ومكابرة، ولتؤكد لنفسها وللآخرين بأنها قد أصبحت أكثر إدراكًا ووعيًا لحقيقة

الواقع التى تعيش فيه، وذلك فى أول لقاء يجمع بينها وبين أيمن فريد بعد هذا التحول فى حياتها.

عندما بادرها قائلاً بود حقيقى :

- لا أعرف إن كان من حقى أن أتساءل عن أمر يخصك أم لا!!

أجابت وهى تسير بجواره بمحاذاة أشجار المانجو :

- طبعًا من حقك.. فالحقوق تكتسب ولا تمنح.

تجاوز دهشته من إجابتها وأردف قائلاً :

- أشعر أنك تمرين بأزمة مع نفسك.. أراك فى صراع غير مبرر.. فأنت تحاولين تغيير أسلوب حياتك وفاجأتى الجميع بذلك.

قالت وهى ترمقه بنظرة شاردة :

- ولماذا لا تقول إننى أحاول استعادة ذاتى التى سلبتها منى الشعارات والمفاهيم البلهاء.

أجاب بسرعة وكأنه أمسك بتلابيب أول الخيط :

- هل تعتبرين تقاليد نشأتك وجوهر شخصيتك هى مجرد مفاهيم بلهاء.

ابتسمت بسخرية وهى تقول:

- أى تقاليد تلك التى تتحدث عنها.. وهل التقاليد فى نظرك تحرم صلة الرحم.. فأنا لا أفعل شيئًا مستحدثًا أو غريبًا..

فجميع من حولى هم أقربائى وبعض جيرانى وأحاول توطيد بعض الصداقات الجديدة والتى حُرمت منها طوال عمرى.

- الغريب هو اختيار التوقيت وليس الغاية من التغيير.. وأنا على يقين أن دوافعك خاضعة لتأثيرات ليست نابعة من أعماقك.

أجابت بحدة :

- من أين أتاك هذا اليقين؟!

اعتراه شىء من الارتباك وهو يقول :

- آسف.. لقد خاننى التعبير، فلنقل إنه مجرد ظن.. فأنا أعلم أنك قدمتِ الكثير من التضحيات من أجل الآخرين.. ولكنها تضحيات نبيلة على كل حال.. فإذا كان مردودها قد خيب آمالك فهذا ليس مبررًا لكى تندمى عليها.. فنحن نتعامل مع المواقف بما تمليه علينا ضمائرنا وطبيعة شخصياتنا.

توقفت فى مواجهته ثم قالت بتهكم:

- أخبرنى أنت عن ردود أفعالك.. إذا ما اكتشفت يومًا أن تضحياتك من أجل الآخرين كانت مجرد فقاعة ليست لها معنى.. والحديث عن الانتماء والحب والمبادئ ما هى إلا شعارات تستهدف المصالح الشخصية فقط.. أخبرنى ماذا أنت فاعل إذا تبينت أن حياتك الماضية كانت مجرد وسيلة تمتطيها

رغبات غيرك.. وبأن دورك ينتهى فور تحقيق أهداف الآخرين.. ماذا أنت فاعل إذا كان مقابل عطائك هو الغدر والأنانية.. أى انتماء هذا الذى تتحدث عنه وقد سمعت ورأيت موقف شقيقين تخليا عن شقيقتهما وهى فى لحظة ضعف بلا رحمة أو شفقة.. تخيل لو كان والدى رحمة الله عليه لم يفعل ما فعل فماذا كان سيصبح مصيرى.. وعن أى حب تحدثنى.. عن الحب المستسلم الذى يهتز هلعًا ورعبًا أمام أول بادرة مقاومة.. ماذا أنت فاعل أجبنى إذا ما صادف حياتك كل أو بعض ما صادفنى؟!!

قال بهمس وكأنه يتهرب من الإجابة :

- القبطان خالد والأستاذ محمود هما أيضًا ضحية الظروف.. فوالدك كما علمت كان له مبدأ اعتنقه بالنسبة لحياته الاجتماعية، لا شك أنه ترك أثرًا فى نفوس الجميع.

لاحقته قائلة بشبه انفعال :

- والدى رحمة الله عليه لم يفعل شيئًا عجبًا.. كانت كل غايته أن يحمينا من غدر الليالى، حاول أن يضمنا إلى صدره ويحول بيننا وبين المغرضين والسفهاء. ضحى بشبابه من أجلنا ولم يفكر للحظة واحدة أن يرتبط بامرأة أخرى بعد وفاة والدتى..

ثم تكون النتيجة هى صدمته فى ولديه فكلاهما اختار طريقه دون مراعاة لظروف الآخرين.. فما ذنب أبى إذن أمام كل هذا الجحود؟!

بدأ هو بالسير وكأنه يرغب فى قيادة الحوار.. ثم قال:

- وهل أسلوبك الجديد فى الحياة سيمكنك من استعادة الماضى وعودة الأمور إلى طبيعتها.

- أنا لا أرغب فى استعادة الماضى.. بل أود أن أعيش اللحظة.. أعيش لحياتى فقط، فلا شىء يستحق فى الدنيا أن يشغل بال أى إنسان عن حياته ورغباته والاستمتاع بذاته.

التفت نحوها فى نظرة مليئة بالتأمل والجرأة.. وفاجأها متسائلاً:

- والحب الصادق.. ألا يستحق بعض الاهتمام والاعتبار!!

عادت للتوقف ثم اقتطفت ثمرة مانجو من فرعها، ودققت إليه النظر وأجابت بثقة وتحد:

- وأين تجده هذا الحب الصادق كما تقول.. يؤسفنى أن أخبرك بأنك واهم أو مثالى أكثر من اللازم.. فالحب يا صديقى اكتفى أن يكون فى خيال الشعراء والكتاب بعد أن قرر الرحيل عن القلوب.

شعر بالدماء تندفع بشدة إلى رأسه حتى كادت أن تنفجر، وكأنه فوجئ بمشهد مروع أو تلقى إهانة غير متوقعة.. حاول أن

يتماسك ولكنه فشل، لم يستطع أن يتفوه بحرف واحد مكتفيًا بإيماءة صامتة من رأسه.. و.. استدار منصرفًا بهدوء.

بينما واصلت هى خطواتها دون أن تلتفت إليه وكأن شيئًا لم يكن.. أو كأنها لا ترغب فى أن تشغل بالها بأمور لا تخصها ولا تعنيها.

ولكنها اضطرت فيما بعد أن تنشغل بأمور أخرى كانت تعلم مسبقًا أنها ستجد صعوبة بالغة فى ترويضها.. أمور تخص محاولات وتلميحات رياض الشريف وإصراره الغريب على الزواج منها بمساندة شقيقها محمود الذى عاد للابتعاد من جديد بحجة انشغاله بإتمام مشروعه بعد أن تراجع عن فكرة إيجار نصيبه من الميراث هو وأخيه وقررا البيع بالكامل لصالح رياض الشريف الذى حدد نسبة محمود فى المشروع بـ10٪ من المشاركة وهو يوازى المبلغ المستحق من ميراثه وأيضًا تولى سداد مديونات خالد لزوجته الدنماركية وسلمه إيصالات الأمانة والصكوك مقابل الجزء الأكبر من نصيبه فى الميراث.

ولم يكتفِ رياض الشريف بكل هذا بل أمعن فى تقديم خدماته بكل طواعية وتكفل بمصاريف محامى خالد ومتابعة قضيته بحماس وصدق. وحاول استرضاء أم سعيد بأن يعرض عليها أن يتولى ولدها أمور الأرض التى أصبحت فى حوزته، ولكنه فوجئ بها

تخبـره بأن ولدها سـعـيـد أصـبح الآن يتـولى إدارة أرضـهـا الذى استـأجرها مـؤخـرًا أيمن فـريد.. استطاع بحنكة أن يخفى انزعاجه من ذلك الشخص الذى اقتحم حياة الآخرين فجأة وأكد عروضه لها بأنه سيكون رهن إشارتها فى أى لحظة تحتاجه فيها.

إلى أن جاءت الليلة التى انصرف فيها جميع الحضور من داخل الڤيلا فى وقت متأخر كالعادة أثناء سهراتهم.. ولاحظت لمياء تلكؤ رياض الشريف فى الانصراف بل تعمد الجلوس منفردًا إلى أن تنتهى هى من توديع ضيوفها ثم عادت إليه قائلة بحذر وكأنها تحدث نفسها :

- لقد انصرف الجميع.

أجاب ببلادة :

- حسنًا فعلوا.. فهذا أنسب وقت لكى نتبادل الحوار بهدوء.

جلست أمامه وهى لا زالت فى حالة من الريبة؛ ثم قالت :

- الوقت متأخر.

أشار بالكأس الذى بيده.. وراح يردد مقهقهًا :

- هذا اللعين يفقدنا دائمًا الإحساس بالوقت.. ما أروعه!!

صمتت فلم تجد ما تقوله، وازدادت ارتباكًا عندما شاركها هو

الآخر فى لحظات الصمت وراح يتأملها بجرأة تقترب من الوقاحة، ولكن ازداد جرأة فى تأملها وهو يتفحص جسدها بنظراته الملتهفة، وشعرت هى بالرعب يصول ويجول فى أعماقها.

وبصعوبة بالغة اخترقت الصمت قائلة :

- لقد حدثنى محمود اليوم وأخبرنى أنه سيأتى الليلة ولكن متأخرًا بعض الوقت.

فوجئت به يقول بسماجة :

- ليته يفعل.. فمن المؤكد أننا سنسعد بانضمامه إلينا. و..

نهض من مكانه مقتربًا من مجلسها وهو يقدم إليها إحدى سجائره المدججة بالمخدرات.. وهمس:

- ألا ترغبين فى استطعامها!!

أشاحت بكفها نحو يده وهى تقول بحزم :

- لا .. أنا أساسًا لا أدخن.

وكأنه تحول فجأة إلى فهد متوحش قد أصابه سهم طائش، وأطاح بما فى يديه، وانقض عليها وهو يصرخ بهستريا قائلاً :

- لا تدخنين .. ولا تشربين.. ولا ترغبين فى الزواج.. أخبرينى إذن ماذا تريدين.. ماذا تريدين.

وتمكن من شل حركتها تمامًا وهو يمطرها بسيل من القبلات فى محاولة جادة منه للنيل منها، وأمسك بطرف فستانها العلوى وجذبه بعنف وثورة جامحة فمزقه ليكشف عن صدرها والكثير من جسدها مما زاد من رغبته الشرهة، وهو يواصل هذيانه صارخًا:

- أهذا ما تريدين.. أهذا ما تريدين!!

وفجأة وعلى غير المتوقع من ضعفها استطاعت أن تدفعه بقدميها بقوة هى نفسها لا تعرف من أين أتت، فأسقطته على الأرض بعد أن اختل توازنه من شدة الضربة أولاً ومن تأثير الخمر على رأسه ثانيًا.

ووقفت كالنمرة المفترسة تصرخ فى وجهه قائلة:

- أنت إنسان همجى ومتوحش.. انصرف فورًا وإلا استدعيت لك من يلقى بك فى الخارج وأنت فى هذه الحالة المهينة.

نهض وهو مطأطئ الرأس، واستدار منصرفًا بخطى منهكة، وكأنه استيقظ فجأة من كابوس لم يكن له دخل فى أحداثه.

بينما تحركت هى إلى أعلى فى طريقها لغرفتها، وما أن تهاوت على فراشها حتى استغرقت فى بكاء كالنواح.. ثم همست إلى نفسها قبل أن تغلق جفنيها قائلة :

.. إلى أين أنت ذاهبة يا مياء؟!!

- 5 -

بدت كالفراشة التى أغراها الضوء الشديد فراحت تقترب منه وتحوم حوله فى ظن منها أنها قادرة على ملامسته وعندما تلتصق به تحترق أجنحتها وتفقد القدرة على العودة إلى أزهارها، كالطاووس الذى تبهره قدرة الطيور الصغيرة على السباحة فى الفضاء، فيعتلى قمة عالية ويطيح بنفسه مغترًا بأجنحته الكبيرة فيتهاوى على الأرض متهشم العظام، حاولت أن تكون غير نفسها ففشلت وضاعت منها خطى العودة إلى كيانها.

أصبحت كيانًا بلا ظلال!!

هكذا شعرت لمياء بنفسها وهى تحيا واقعها الجديد الذى اخترعته ولم تفلح محاولاتها فى أن تتعايش معه.. فكلما اتسعت دائرة معارفها شعرت بالوحدة أكثر من ذى قبل.

إحساس ما كان غامضًا بداخلها، تبحث عنه دون أن تعرف ما هو.

مجرد شعور مبهم بأنها تفتقد عنصرًا هامًا من تكوينها الشخصى.. افتقدت الأمان بالرغم من إمكانات مواردها الفائقة ، لم تجد مبررًا كافيًا لذلك الشعور بالنفور من كل كلمات الإطراء التى تحيط بها، الجميع كانوا يتملقونها ويبدعون فى وصف

مديحها، الغرباء قبل الأقرباء، ولكنها بالرغم من كل هذا كان ذلك الإحساس الذى بلا هوية يستقر فى أعماقها بل ويضغط على رئتيها.

حاولت التصالح مع نفسها، ومع الآخرين.

تقبلت اعتذار رياض الشريف لها، وارتضت بمبرراته بأنه لم يعتد تناول الكحوليات التى أفقدته اتزانه وقدرته على التصرف بحكمة، وزادت من تسامحها عندما قررت أن يخفيا أمر ما حدث عن الجميع، واكتفت بما قاله لها:

.. ستجديننى صديقًا وفيًا.. وسأحيا على أمل أن تنصفنى الليالى القادمة!!

ولكن.. من ينصفها هى ويخلصها من ذلك الإحساس الدخيل على مشاعرها. مرارة الشعور بالوحدة تكاد تفترش حلقها، والخوف من لا شىء يؤرق غفوتها قبل يقظتها.. لم يعد غيث المطر يثير فى نفسها التفاؤل كسابق عهدها معه، بل أصبحت تراه وكأنه قطرات دموع لكل القلوب الجريحة.. الرياح حملت عطر الزهور بعيدًا ولم تترك لها إلا هواءً لزجًا يطبق على صدرها، وطغى نعيق البوم والغربان على صوت تغاريد الطيور فوق أغصانها، لم يعد للشروق معنى بعد أن هاجم الملل أيامها وكشر الليل عن كآبته.

وبعد أن أعياها البحث عن مبررات ترضى عنادها، بسبب

الإحساس المبهم وكأنها تعمدت طويلاً أن تراوغ معرفتها بالحقيقة أو تعترف بها.

اضطرت أن تستسلم لإرادة الواقع الجديد، وتستجيب لنبض الصدق فى وجدانها وتقر مع ذاتها بأنها بالفعل مفتقدة الإنسان الذى ظهر فى حياتها دون اقتحام ورحل عنها بهدوء وسلام.

لا أحد غير أيمن فريد.

افتقدته بشدة، وفشلت تمامًا فى أن تنفى بأنه السبب الرئيسى لذلك الاحساس بالوحدة، خاصة بعد رحيله وتعمده الابتعاد عن طريقها. كما فشلت فى استعادته من خلال اتصالاتها الهاتفية، وهى الوسيلة الوحيدة التى تعرفها للاتصال به.. وبعد أن حاولت مرارًا ولم تفلح قررت أن تسلك طريقًا آخر لكى تصل إليه، ولم تجد غير فكرة اللجوء إلى أم سعيد دون أن تفصح عن حقيقة سبب تلك الزيارة بعد غياب طويل.

كان لقاؤها بأم سعيد أشبه بلقاء الأم المكلومة التى عانت كثيرًا لابتعاد ابنتها عنها بعد رحلة اغتراب طويلة.

وبادرتها بنبرتها الطيبة قائلة:

- من أين لك بهذا القلب المتحجر.. كيف هانت عليك أم سعيد واستطعتِ البعاد كل هذه المدة؟!

عادت تحتضنها وهى تجيب بصدق قائلة :

- أنتِ تعلمين جيدًا أن لا شىء فى الدنيا يستطع أن يبعدنى عنك، إلا إذا كانت ظروف قاهرة وعصيبة.

رمقتها بنظرة تنم عن ذكاء فطرى.. وقالت كالهمس:

- سمعت عن أحوالك الجديدة.

أدركت لمياء ما تعنيه أم سعيد بعد أن لاحظت عدم رضاها.. وأجابت:

- المفروض أنك أقرب الناس فهمًا لظروفى.. لقد حاولت يا أمى أن أعيش حياتى بعد كل الصدمات التى تلقيتها من أقرب الناس لى.. وشبابى الذى تسلل من عمرى دون أن أشعر به.. الجحود والأنانية أفقدانى القدرة على المقاومة بين القريب والغريب.. الخوف من الوحدة كاد أن يدمرنى.. حاولت أن أجمع الناس حولى لكى أشعر بالأمان، حتى ولو كان زائفًا.

تساءلت المرأة مع نظرة عتاب قائلة :

- وهل وجدتِ الأمان يا لمياء؟!!

اشتعلت وجنتاها احمرارًا وهى تجيب بحسرة :

- للأسف زاد إحساسى بالوحدة وأيضًا خوفى من الغد.. و..

حاولت أن تتماسك قبل أن تستطرد قائلة بحب:

- حتى أنتِ لم تفكرى فى زيارتى وتركتنى فى وحدتى حائرة!!

تجهمت ملامح أم سعيد وقالت بحزم :

- ما سمعته عن أخبارك جعلنى لا أفكر حتى فى الاقتراب من الڤيلا.

لاحقتها بدهشة :

- ماذا سمعتِ.. فأنا كما أنا لم يحدث تغير فى طباعى أو أخلاقى؟!

فاجأتها قائلة :

- بيت الحاج كمال الذى كانت الملائكة ترفرف حوله وبداخله.. أصبح اليوم بسبب تصرفاتك الجديدة ملاذًا للشياطين والفجرة.. وأقسم أننى لولا معرفتى بأخلاقك التى أنشأتك عليها لكنت رفضت استقبالك اليوم هنا!!

وكأنها كانت تنتظر ذلك التأنيب لكى تتخلص من همومها التى تطبق على صدرها وانفجرت باكية بانكسار وهى تلقى برأسها فوق صدر أم سعيد وراحت تردد وهى تواصل بكاءها :

- أنا متعبة يا أمى ولا أعرف كيف ألملم شتات نفسى بعد أن فقدت السيطرة عليها.. لقد تركنى الجميع.. ضميرى يؤنبنى بمرارة وأصبحت حياتى جحيمًا على غير ما يعتقد الآخرين.. أرشدينى يا أمى ماذا أفعل؟!

قالت أم سعيد وهى تربت على رأسها بحنان :

- استعيذى بالله يا ابنتى.. عودى إلى نفسك كما أعرفك ويعرفك الجميع.. يا ابنتى أنت لست كهؤلاء الذين تحيطين نفسك بهم ولن تفلحى بأن تكونى مثلهم حتى ولو حاولت ذلك.

رفعت رأسها وهى تمسح مدامعها بأطراف أصابعها.. وقالت بنبرة ضعيفة:

- أرجوك لا تتركينى وحدى.. فأنا فى حاجة إليك.. و..

وصمتت عدة لحظات ثم أردفت قائلة وكأنها تحدث نفسها:

- حتى الآخرين الذين وثقت بهم تركونى أيضًا بلا سبب أعلمه.. ولا أعرف مصيرهم الآن.

ابتسمت أم سعيد وترقرقت فى عينيها نظرة دهاء محببة.. ثم قالت:

- اطمئنى.. هو بخير!

أذهلتها المفاجأة.. وتساءلت بحذر:

- عمن تتحدثين يا أمى!!

أجابت بطيبة :

- يا ماكرة.. أنسيت أننى التى قمت على رعايتك وأعرف متى تتخابثين ومتى تراوغين عندما تحاولى إخفاء شئ عنى.

أشـرقت ابتسـامـتـهـا دون أن تعقب على كلمـاتهـا.. واسـتطردت المرأة قائلة:

- أعـرف أنك تقصـدين أيمن بك فريد.. هو بخيـر.. والله يا ابنتى هذا الشـاب يومًا بعد يوم يقـتـرب من قلبى وكـأنه ولدى تمامًـا.. إنسـان وقـور ومـحتـرم ولديه قـلـب كبيـر وعطوف، ويكفـى موقـفه مـع الفـــلاحين الـذين طردهـم رياض بـك مـن أرضـــه بـعـــد أن اسـتبدلهم بآخرين من طرفـه.. لقد اسـتعـان بهم جميعًـا ليعملوا هنا فى الأرض وبـأجـور تفـوق أجـورهـم السـابقـة.. ويكفـى أيضًـا أنه دائم السـؤال عنك ويتابع أخبـارك، بعد أن أخـبرنى بـأنه قـرر الابتعاد عنك مضطرًا حسب رغبتك.. أو كما تخيل أنها رغبتك.

قالت بلهفة :

- أنا لـم أطلب منـه الابـتـعـاد.. كل مـا فـى الأمـر أننـا اخـتلفنـا فـى وجهات النظر.. و..

سكتت برهة وكـأنهـا تسـترجع آخـر حـوار دار بينهمـا.. ثم عـادت تقول:

- ويبدو أنه كان على حق وأنا المخطئة.

وهنا ضحكت أم سعيد بصوت عال.. ثم قالت بسعادة :

- أرايتِ كـيـف أنـا أعـرفك جـيـدًا.. فطـالما الأمـر كـذلك فلمـاذا

المراوغة والتأجيل.. فأنت يا غالية فى حاجة إلى رجل مثله يواصل معك مسيرة حياتك.

همست باستحياء:

- إنه يتهرب من محادثتى.

أجابتها بثقة:

- دعى الأمر لى.. فهو يأتى يوم الاثنين من كل أسبوع.. وسوف أتولى توضيح الأمر له.. وتوقعى زيارتنا بعد غد.

وبتلقائية التصقت لمياء بها وهى تضمها إلى صدرها مرددة ببهجة:

- الآن أدركت أنك سامحتنى.. ربنا ما يحرمنى منك أبدًا يا أغلى أم.

وبإحساس الأمومة الصادق سألتها وهى مشفقة :

- ما هى أخبار خالد ومحمود.

تخلصت لمياء من تنهيدة ثقيلة فى صدرها.. وأجابت بحزن :

- لقد تم الحكم على خالد بالسجن ثلاث سنوات، وقلبى ينزف دمًا بسبب ظروفه فقد أضاع مستقبله من تهوره.. ومحمود كما تعرفينه لا يفكر فى أحد غير نفسه ونادرًا ما يأتى لزيارتى وأنا أعلم أن السبب الحقيقى هو من أجل مقابلة رياض الذى أصبح شريكه. بل تقريبًا موظفًا عنده بنسبة 10٪.

قالت أم سعيد وهى شاردة :

- لست أدرى لماذا أنا لا أرتاح لهذا الرجل.. لقد شعرت بالانقباض منذ الوهلة الأولى التى رأيته فيها.

عقبت قائلة :

- هو نفس إحساسى.. بالرغم من أن الرجل له مواقف كثيرة تثبت أنه حسن النية ودائمًا ما يعرض خدماته على الجميع.. ويكفى تحمله مسئولية متابعة قضية خالد وأيضًا مشاكله الخاصة مع زوجته الأجنبية وكذلك موقفه مع محمود فيما يخص حلم عمره بالمشروع السياحى.. و..

وازدردت ريقها وكأنها تبتلع معنى لا تريد الإفصاح عنه.. ثم قالت:

- فهو أيضًا حريص جدًا على استمرار علاقته بنا.. ولا أدرى السبب.

أجابت أم سعيد بلا تردد :

- هو يريدك يا لمياء.. علمت برغبته بالزواج منك بأى ثمن ومهما كانت التضحيات.

وكأن الأمر لا يعنيها همست بفتور :

- هذا أمر يخصه هو وحده .

وعلى غير المتوقع فاجأتها بقولها:

- على كل حال بعد أن يتم الاتفاق بينك وبين أيمن يجب أن نذهب

لزيارة خالد ونخبره بأمركما وكذلك محمود، فهما أخوتك فى النهاية.. وبالتأكيد سيسعدهما ذلك النبأ.

ارتجفت شفتاها بابتسامة راضية. وهى تقول:

- ما هذا يا أم سعيد أنتِ تتخذين القرارات من قبل أن...

قاطعتها بثقة :

- نعم أنا واثقة من كلامى.. فأيمن بك أخبرنى بوضوح أنه يرغب فى الارتباط بك بل صارحنى بحبه لك ولكن كبرياءه كان يحول بينه وبينك بسبب حواراتك الأخيرة معه.

قالت بدلال غير مصطنع :

- جميعنا لدينا كبرياء.. أليس كذلك يا أمى؟

أجابت بسعادة بالغة :

- هيا عودى إلى الفيلا قبل أن تغيب الشمس وأنت فى الطريق.. وانتظرى زيارتنا بعد غد كما قلت لك يا شقية.

نهضت من مكانها، ثم عادت ومالت بجسدها لتقبل رأسها وهى تردد قبل انصرافها بنبرة سعيدة :

- سأنتظرك.. أقصد سأنتظركما يا أغلى الناس.

وانصرفت عائدة من حيث أتت.

- 6 -

يوم غير عادى.

الشمس مشرقة بعد ليلة ممطرة شديدة الإعصار، والرياح مسالمة تحمل معها دغدغة باردة لا تصل إلى حد الصقيع، والأغصان تتمايل برفق وكأنها تُطمئن الطيور على أعشاشها.

بدت كرسالة حب من الطبيعة تسللت معانيها إلى أعماق لمياء تدعوها للتفاؤل وتخبرها بأن الماضى قد رحل بكل مآسيه وبأن الغد كله أمل وأمان.

اليوم هو الاثنين.. استقبلته كما تستقبل العروس العاشقة بدايات حياتها الجديدة. فالأمانى استعادت قواها والمشاعر دبت فيها نبضات الحيوية والبهجة، لم يعد للكآبة تواجد فى الوجدان، ولن يكون للخوف منفذ بعد اليوم لهذا الكيان. تزينت بأحلى ما يمكن أن تتزين به فتاة انتظرت طويلاً تلك اللحظة.. كل شىء بدا رائعًا فى داخلها وحولها.

أصرت أن تشرف على ترتيبات الاستقبال بنفسها.. تعليماتها للعاملين داخل الڤيلا بدت وكأنها همسات حب كالتى تجمع بين

العشاق.. الورود الطبيعية تفوح منها نسائم العطر، مشرئبة فى نضارة وكأنها لم تقتطف من أغصانها.. الأضواء تلألأت بالرغم من سطوة الشمس على المكان.

ترامى إلى سمعها صوت الطرق الخفيف على الباب الخارجى للفيلا، شعرت به وكأنه سيمفونية رائعة تضم فى أنغامها أروع الألحان.

هرعت إلى الباب مسرعة لتفتحه وعلى وجهها ارتسمت كل أسارير البهجة والسعادة واللهفة، وفى عينيها معانى اللوم وعتاب الأحباب.

ولكن.. لا شىء يفوق قسوة عناد القدر!!

لحظة زلزال مرعبة أفقدت الأشياء ملامحها، كالبركان الثائر الذى أطاح بنيرانه فوق سطح الأرض وتحولت ألسنته إلى أنهار من اللهيب، وراحت تنخر فى جبال الثلج وتحيلها إلى فيضانات تبتلع كل ما فى طريقها.

وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام أحمد فوزى.

رأت الموت يتجسد فى كيان نابض، وكأن الماضى كله قد تكور داخل هذه اللحظة!!

أحمد فوزى ذلك الحبيب الذى خذلته رغمًا عنها، وقهرته وقلبها ينزف دمًا وأفقدته مستقبله لتعيش بعده بلا أمل فى المستقبل.

ها هو مـرة أخـرى يقف علـى أعـتـاب بـابـهـا، والذهـول يخـرس ألسنتهما وكأنهما انتحرا فجأة واستسلما للموت فى تلك اللحظة.

فما أشقى الإنسان الذى يعانده القدر!!

همست فى ذهول:

- مستحيل!!

وكأنه انتظر سنوات طويلة لكى يقف أمامها مرددًا اسمها قائلاً:

- لمياء .

سرت رعشة خفيفة فوق شفتيها قبل أن تتفوه قائلة :

- اتفضل يا أحمد.

عـانـدتـه قـدمـاه فـى الاسـتـجـابـة لخطواته، وسـكن مـتـرددًا لعـدة لحظات حتى تمكن من استعادة توازنه وتقدم إلى الداخل بحذر وهو ينظر إلى لاشىء.

جلسا متواجهين وكلاهما يحاول أن يخفى توتره وارتباكه.

قالت :

- سنوات طويلة مضت.

أجاب وهو يتلفت حوله، وكأنه يتفحص المكان :

- لم يتغير أى شىء.. الحال كما هو.. إلا أنت!!

- أنا !

أسرع يقول :

- لقد ازددتى جمالاً وروعة .

وكأنها لم تسمع ذلك الإطراء.. وقالت بتأثر :

- لقد توفى والدنا.

أشار برأسه مؤكدًا. ثم قال:

- نعم سمعت عن ذلك مؤخرًا.. الله يرحمه كان رجلاً مكافحًا وطيب القلب.

تساءلت :

- متى عدت .. و..

وقبل أن يجيب لاحقته مستطردة وكأنها لا تنتظر منه إجابة :

- لقد تغيرت ملامحك قليلاً.

قال باقتضاب، بعدما فوجئ بفتورها:

- منذ أسبوع تقريبًا.

سألت بغير اهتمام :

- هل كنت خارج البلاد طوال المدة الماضية.. أم..

قاطعها بحذر قائلاً :

- ما يربطنى بك من مشاعر وحب يحول بينى وبين أن أخبرك بما حدث لى من أحداث حتى لا أثقل على ضميرك وعلى مشاعرك المرهفة.

انتظر عدة لحظات لعلها تعقب على كلماته، ولكنها لم تفعل.. فاستطرد قائلاً:

- فأنت لن تتحملى الإحساس بالذنب بعد ما حدث من موقفك السلبى الأخير.. فأنا تعرضت لمآسى تفوق احتمال أى إنسان فى مثل ظروفى.. يكفى صدمتى فى وفاة أمى بعد غربتى المفاجئة وضياع مستقبلى.

قالت وهى شاردة الذهن :

- لم يكن بيدى شئ أفعله.. فالقرار لم يكن قرارى وكان من المستحيل التصدى لرغبة أسرتى.. على كل حال الماضى رحل بمساوئه وذكرياته.. والحمد لله أنك بخير.

لم يكن من الصعب عليه اكتشاف التغير الذى طرأ على شخصيتها.

وفى محاولة لاستعادة هيمنته عليها عاد يسترسل فى حديثه متنقلاً من حدث إلى آخر دون توقف أو انتظار ردود أفعال منها.

حدثها عن معاناته عندما رفضت الشركة التى كان يعمل بها أن تعيده إلى عمله بحجة أنه تقدم باستقالته طواعية، وكيف كان

وقع الصدمة عليه أمام تعسف عائلتها ورفضهم بالاقتران بها للمرة الثانية.. وما كان من موقفها بالرغم من علمها بقدر التضحية التى قام بها من أجلها.. أخبرها عن قراره بالهجرة خارج البلاد متصورًا أنه بذلك سوف يضمد جراح قلبه ولكنه فشل.. وبأنه انتقل من بلد إلى آخر حتى استقر به المقام فى إيطاليا واستطاع الحصول على عمل فى إحدى شركات الخدمات البترولية، وكيف سقط فى بؤرة الإدمان بعد أن التف حوله بعض ذيول مافيا المخدرات لينتهى به الأمر فى إحدى المصحات هناك ليتخلص من ذلك الداء اللعين.. و..

التقط أنفاسه لعدة لحظات وهو يتأمل وجهها الجميل.. ثم أردف قائلاً بنبرة مليئة بالدفء والحنان:

- قد تدهشين عندما تعلمين أننى كنت أتابع أخبارك دومًا من خلال بعض معارفى هنا الذين كانوا على علم بعلاقتنا، ولا أستطيع أن أصف لك مدى عذاباتى وأيضًا اعتزازى بك كلما علمت بأنك تصرين على عدم الارتباط بأحد غيرى وحافظتى على عهدنا بأن انتظرتنى إلى آخر العمر.

وكأنها تحاول أن تثنيه عن تلك التصورات التى تدور فى رأسه.. قالت بهدوء:

- والدى توفى منذ فترة قليلة.. وطوال العشر سنوات الماضية كنت أتولى مسئولياته وأيضًا احتياجات أشقائى.

ابتلع مـرارة كلمـاتهـا دون أن تـلحظ هـى مـا يجـيش فى صـدره.. ثم عاد ليقول :

- بالمناسبـة أنـا تأثرت كـثيـرًا لما حـدث للقـبطان خـالد.. وعلمت أيضًا أن الأستاذ محمود يدير مشروعًا سياحيًا كبيرًا أعتقد أنه شـريك فـيـه.. فى الحـقـيـقـة أنا أشـعـر الآن وكـأنـى ولدت من جديد.. أصبـحت لا أتذكـر أى شىء من الأحـداث التى مـرت بى وذلك منذ اللحظة التى رأيتك فيـهـا.. ومـن حـقنـا الآن أن نفكر فى المستقبل.. و..

وفـجـأة انتـفضت من مكانهـا بعـد أن سـمعت طرقات على البـاب الخـارجـى، واستـوقفت إحدى العامـلات التى كانت فى طريقـهـا لفتـح البـاب وأصرت هـى أن تتـولـى تلك المهـمـة فهـى تعلم من القـادم، بينمـا ظل أحمـد فوزى سـاكنًا تحت تأثير دهشـته من توترهـا المفاجئ وراح يتلفت هو الآخر إلى كل اتجاه دون تركيز.

كان القـادمان كمـا توقعت.. أم سعيد وأيمن فريد.

سـرعـان مـا افترش الغـموض أرجاء المكان.. التقت نظرتا أحـمد فـوزى وأيمـن فـريد فـى لحظات صـمت مـريبـة بلا تعـبـيـر علـى مـلامـحهمـا، بينمـا دارت الأرض تحت قدمى أم سعيـد فـى ثوان كـادت أن تفقدهـا توازنها.

وبـلا إرادة أفلتت من شفتيها كلمات غير متسقة وهـى تقول:

- من!! الأستاذ أحمد فوزى.. مستحيل.. يا سبحان الله.. أشعر وكأنى فى حلم.

فى هذه الأثناء تبدلت أسارير أيمن فريد واكتأبت ملامحه، فهو يعلم مَن هو أحمد فوزى من خلال ما أخبرته به لمياء أثناء أحاديثهما عن الماضى.

بينما نهض أحمد فوزى لاستقبال أم سعيد وهو يقول:

- الحاجة أم سعيد.. كم أنا سعيد أنى رأيتك بصحة وعافية.. كيف حالك يا أم الغالية؟!!

- بخير يا ابنى.. بخير.

تدخلت لمياء فى الحوار قائلة وهى تشير نحو أيمن :

- أيمن بك فريد.. رجل الأعمال والصناعة ومن أصدق المقربين لى في حياتى.

ثم التفتت تجاه أحمد قائلة باقتضاب سريع :

- الأستاذ أحمد فوزى. و..

لاحقها أحمد فوزى معقبًا بجرأة ليفاجئ الجميع قائلاً :

- وخطيبها.

وقبل أن يستقبل أى ردود فعل لكلماته، تحول إلى أم سعيد مستطردًا :

- أرأيت يا أم سعيد كيف أنصفتنا الأقدار بعد كل هذا العذاب.. والحمد لله أنك بصحة جيدة لكى تسعدى بنا وبابنتك الغالية لمياء.

قالت لمياء بجدية واضحة :

- نحن لم ننته من حديثنا بعد يا أستاذ أحمد.. فأنت تتحدث عن ماضٍ بعيد وكأنه وليد لحظتنا تلك.

تعمد ألا يعقب على ملاحظتها، واتجه نحو أيمن سائلاً :

- أيمن بك ما هو تخصص أعمالك.. يا ترى هل ..

ولكن أيمن يقاطعه بجفاء قائلاً :

- العمل هو العمل مهما تعددت تخصصاته.. و..

التفت تجاه أم سعيد وأردف :

- هل ستأتى معى يا أم سعيد.. فمن الأفضل أن نتركهما ليكملا حديثهما.. يبدو أننا جئنا فى وقت غير مناسب.. أم تفضلين البقاء وأعود أنا بمفردى!!

ثم عاد إلى أحمد قائلاً :

- تشرفت بمعرفتك يا أستاذ أحمد. و..

واتخذ طريقه للانصراف خارج الڤيلا، وفى هذه اللحظة أسرعت لمياء تجاهه ولحقت به قبل مغادرته المكان قائلة بهمس وصدق شديد :

- أيمن.. أنت ترى بنفسك لقد فوجئت بهذه الزيارة ولم يسعفنى الوقت لكى أفكر كيف أتصرف.. أرجوك أن تقدر موقفى.. أرجوك يا أيمن.

أجاب بنبرة أكثر همسًا وقال بحسم :

- القرار قرارك.. وأنا لن أفرض عليك شيئًا.. وفى الحالين يجب أن تعلمى أننى معك وفى خدمتك دائمًا.

تلألأت ابتسامة رقيقة فوق شفتيها وقد أغرورقت عيناها بدمعة حائرة.. ثم قالت :

- كنت واثقة بأنك لن تتخلى عنى.. ويهمنى أن تعلم بأن لا شىء تغير، والقرار بالفعل قرارى.. وأنا فى انتظار قرارك.

افترشت ملامح البهجة فوق وجهه وهو يقول بسعادة :

- إذا كان الأمر كذلك.. فأنا على استعداد لأحطم أى عائق يقف فى طريقى إليك!!

و.. تحول بنظره إلى أم سعيد وقال صائحًا:

- هيا يا أم سعيد.. فلا داعى أن تعودى بمفردك.

قطعت أم سعيد حوارها الجانبى مع أحمد فوزى، ونهضت مستجيبة لنداء أيمن وهى تردد قائلة :

- أنا معك يا أيمن بك.. انتظرنى.

و.. انصرفا معًا.

بينما عادت لمياء إلى موقعها أمام أحمد فوزى.. وقالت بلا اهتمام:

- أهلا وسهلاً .. حمدًا لله على سلامتك.

أجاب بتحفظ :

- يبدو أن أيمن بك قريب منكم جدًا.. فأنا لاحظت اهتمامك به الكبير.

انتظرت عدة لحظات، وكأنها تفكر فى الرد المناسب لتلك الملاحظة.. ثم قالت بهدوء :

- بالفعل هو من أقرب الناس لى.. وله مواقف عديدة لا يمكن إغفالها.

قال بخبث :

- بالطبع.. فأنا أعلم أن أصحاب المواقف العظيمة عادة لاينتظرون المقابل!!

وأعلم أيضًا أن الإنسان فى حالات اليأس والإحباط قد يتصور أشياء أو تنتابه مشاعر غالبًا ما تكون غير حقيقية، ولكن الظروف تجعله يصدق نفسه.

قالت بحذر :

- على كل حال.. لكل قاعدة استثناء!!

فاجأها متسائلاً :

- ويا ترى هذا الاستثناء يخصك؟!

انتبهت لهذا التساؤل المباغت.. وأجابت بثقة :

- الأقدار هى صاحبة الكلمة فى مسيرة الإنسان .

قال بعناد :

- الأقدار تتحكم فى الظروف.. ولكن.. ليست فى المشاعر.

- أنت تعلم أن الظروف أحيانًا تكون قاهرة وأقوى من كل شىء.. من إرادة الإنسان نفسه ومن مشاعره.. والأيام تأتى بالجديد دومًا وتفرضه على واقعنا.

وبحنكة يشوبها الكثير من الغموض والمراوغة.. عقب قائلاً:

- عندك حق.. فمن كان يتصور أن الأيام ستفرض علينا الواقع الذى عشناه أنا وأنت ونحن ندافع عن حبنا.. فهى لم ترحمنا.. أنا فقدت مستقبلى وعانيت ما عانيت طوال غربتى.. وأنت تحملتِ ما يفوق طاقة البشر من أجل حبنا.. ولكن.. الحمد لله ها نحن التقينا وفى لحظة نسينا الماضى بكل آلامه.

لم يكن من الصعب على لمياء أن تدرك بأنه يتحايل بالكلمات إلى أن يصل لمقصده بوضوح، وكأنها أرادت أن تحاوره بنفس منهاجه لعله يدرك هو الآخر بأن هناك أمور عديدة قد اختلفت فى حياتها أثناء فترة غيابه.

وبهدوء مثير قالت وكأنها تقف أعلى منبر للخطابة :

- أنت تدرك يا أحمد أنه لا يوجد إنسان فى الكون يستطيع أن يحدد معالم مصيره مهما كانت فراسته ولو استعان بخبراته وخبرات الآخرين.. فالزمن وعاء لواقع متجدد باستمرار تحدده الأقدار فقط.. ولهذا فالماضى قد يعود بأحداثه مع أناس غير الذين عايشوه ، ولكنه من المستحيل عودته لمن تعاملوا معه فى السابق.

قال بتحدٍ:

- إذا كانت أحداث الماضى لا تعود.. فهل أيضًا المشاعر ترحل معه؟!

أجابت بسرعة :

- المشاعر مرتبطة بتغير الأحداث.

وبإصرار أكبر قال :

- إذا كان الأمر كما تقولين، لاستطاعت كل أم أن تنسى وليدها إذا غاب عنها طويلاً أو طواه الموت.

استفزتها كلماته .. وقالت :

- الأمومة إحساس ذاتى.. أما المشاعر فهى تفرض نفسها على صاحبها حسب المواقف التى يواجهها.

أسرع معقبًا :

- هذه حقيقة بلا شك.. ولكن.. هناك مواقف ترتقى بمكانتها إلى

أعظم درجات الحب، كالتضحيات مثلاً.. فالإنسان الذى يضحى بصدق من أجل إنسان آخر فهذا معناه أنه يفضله على نفسه.. و..

دقق النظر إلى عينيها، ثم أردف متسائلاً :

- أليس كذلك يا لمياء؟!

- عادة الذى يضحى لا ينتظر المقابل.

- بالتأكيد لا ينتظر المقابل.. ولكن من الظلم أن يكون مردود تضحياته هو الجحود أو الأنانية.. ولنضرب بأنفسنا مثلاً.. فأنا وأنتِ كلانا ضحى من أجل الآخر.. أنا كما علمتِ ما حدث منى ولى.. وأنتِ واجهتِ الجميع بإصرار وعزيمة ودافعتِ عن حبنا وقاومتِ رغبات المنطق، والدليل على ذلك بقاؤك إلى اليوم بدون زواج على أمل عودتى.. فهل يجول بخاطرك للحظة أنه بعد كل هذا يمكن أن أتخلى عنك أو أدعى بأن الظروف قد اختلفت؟!.. وأنا أيضًا لا أتصور أن يكون موقفك معى غير متوائم مع موقفى.

ظهر السأم واضحًا على ملامحها قبل أن تقول :

- على كل حال نحن لا نملك مصائرنا.. وبالمناسبة أين تقيم الآن.. هنا فى طنطا أم فى مكان آخر!

نهض بتلكؤ وهو يجيب قائلاً :

- الطيور تعود إلى أعشاشها دائمًا.

لم تبد اهتمامًا بما قاله، وسارت تتقدمه بخطوة فى اتجاه الباب ثم توقفت تودعه.. قائلة بفتور فشلت فى أن تخفيه :

- أرجو أن أسمع عنك خيرًا دائمًا.

تساءل وهو محتفظ بكفها بين أصابع يده :

- متى سنلتقى ثانية؟!

ترددت لحظة قبل أن تجيب :

- غدًا مساء سيكون عندى بعض الضيوف، وأيضًا أخى محمود فلا مانع من أن تحضر.. فنحن أبناء بلدة واحدة فى كل الأحيان.

ابتسم بسخرية .. وقال :

- لا مانع إذن أن يزداد عدد الضيوف واحدًا.

سحبت كفها بهدوء.. ثم تراجعت خطوة إلى الوراء تأهبًا لإغلاق الباب وقالت باقتضاب :

- أراك بخير .

أغلقت الباب.. ثم استدارت وهى تطلق زفرة قوية من صدرها وكأنها تتخلص من صهد اللهيب الذى استقر فى أعماقها طيلة فترة اللقاء.

- 7 -

ليل بلا قمر !!

وكأن القمر قد تخلى عن موقعه فى السماء، ليهبط مستقرًا داخل ڤيلا الحاج كمال سليمان متقمصًا صورة لمياء التى راحت تخطو بين جموع الحاضرين وهى متلألئة الضياء. فهى تضمر فى نفسها قرارًا سوف تعلنه أمام الجميع لعلها بذلك تتخلص من توابع حيرتها التى أشعلها الصراع القائم بين حاضرها وماضيها.

تنقلت بين المدعوين، تشاركهم أحاديثهم الخاطفة.. تستقبل كلمات الإعجاب بسعادة وتلقائية.

انتبهت لوجود رياض الشريف برفقة شقيقها محمود وهما فى حوار جاد يخص مشروعهما.. رحبت بجيرانها وزوجات أقربائها، تولت بنفسها ضيافتهم بمعاونة العاملات بالڤيلا.. أسعدها وجود أيمن فريد وهو يتوسط بعض رجال الأعمال المهتمين بالتصدير.. شعرت بالأمان وهى ترى أم سعيد جالسة ويحيط بها بعض معارفها من ملاك الأراضى المحيطة بالمزرعة، خاصة وأنهم من الرواد الجدد الذين قبلوا دعوتها بعد علمهم بأن المناسبة لا خمر فيها

ولا مجون.. كان قلبها يخفق بشدة كلما سنحت لها فرصة اختلاس نظرة مشتركة مع أيمن وكأنهما على اتفاق ما سوف تفصح عنه بعد قليل.

استقبلت بكل هدوء ظهور أحمد فوزى، وأسرعت نحوه لترحب به.. ثم فاجأته قائلة :

- أهلاً بك فى دارك .. تعالى معى لكى أعرفك بالآخرين.

تقدمته بخطواتها فى اتجاه رياض ومحمود، وعند اقترابها رددت بثقة :

- طبعًا أنت لست فى حاجة لأقدمك لأخى محمود.. ثم..

التفتت نحو رياض وقالت:

- رياض بك شريك أخى.. أحمد بك فوزى أحد جيراننا المقربين.

لم يستطع محمود إخفاء استيائه من تلك المواجهة، إلا أنه اضطر لمصافحته على مضض. بينما ردد رياض الشريف بعض عبارات المجاملة وهو يدعوه لمشاركته مجلسهم، فاستجاب له وجلست هى بجوار محمود وقالت باتزان:

- أحمد بك كان من الطيور المهاجرة، والآن عاد بعد عشر سنوات تقريبًا.

بادره رياض متسائلاً :

- ويا ترى أحمد بك أين قضى فترة غربته؟!

أجاب أحمد باقتضاب :

- فى بلاد كثيرة.

قالت لمياء :

- أحمد بك لديه خبرات متعددة، فهو رجل أعمال ناجح وفى مجال التصدير أيضًا.

و.. استمر الحوار بين ثلاثتهم فى موضوعات شتى، تضمنت الكثير من عبارات المجاملة.. بينما ظل محمود ساكتًا متأففًا وقد تجهم وجهه تعبيرًا عن استيائه وعدم ترحيبه بالضيف الجديد.

حاولت لمياء أن تخفف من حدة ذلك التوتر فقالت بعفوية:

- أخى محمود أيضًا بارع فى أفكاره الاستثمارية.. و..

ولكنه قاطعها بجفاء قائلاً :

- أعتقد أنه من غير المناسب أن تتركى ضيوفك الآخرين هكذا.. فأنا أرى بعضهم يتأهب للانصراف.

وكأن رياض أراد أن يستبقيها أمامه لأكبر وقت ممكن، فأسرع متوجهًا إليها بالحديث قائلاً:

- وأنا يا أنسة لمياء ألا ترينني رجل أعمال ناجح؟!

ابتسمت بصعوبة وهى تجيبه قائلة :

- خبرات حضرتك ليست فى حاجة للشهادة أو الإشادة بها.

تجلت نشوة الغرور فى صدره وراح يردد وهو يقهقه ضاحكًا:

- على الأقل أنا ورثت التجارة أبًا عن جد.. و..

التفت نحو أحمد فوزى مداعبًا :

- ولم أكن مهندسًا چيولوچيًا كغيرى ثم تحولت إلى التجارة!!

تملكت الدهشة لمياء، وشردت مع نفسها فى حديث صامت متسائلة فى حيرة :

.. كيف عرف هذا الرجل أن أحمد كان مهندسًا چيولوچيًا؟!

وازدادت شكوكها عندما لاحظت توتر أحمد فوزى وهو يرمق رياض بنظرة ملؤها الغيظ المكتوم.. ثم عقب على كلماته قائلاً:

- يبدو أنها أصبحت ظاهرة الآن.. فالجميع يطلقون على الآخرين لقب المهندس أو الباشمهندس كدليل على التقدير.. و..

وقبل أن يكمل حديثه، نهضت لمياء فجأة وهى تقول بلطف:

- استأذنكم لأرحب بباقى ضيوفى.

وتركتهم لتندس وسط الجموع، ولكن تساؤلها الهامس ظل مسيطرًا على فكرها.. كيف عرف رياض هذا الأمر؟!!

حاولت أن تخفى توترها المفاجئ، واحتفظت بابتسامة رقيقة فوق شفتيها وهى تارة تتبادل الحوار مع أحدهم أو تداعب إحدى المدعوات بكلمات من الإطراء إلى أن ساقتها خطواتها لمواجهة أحد أقربائها من أصحاب النفوذ والذين ظهروا مؤخرًا بعد وفاة أبيها.. كان الرجل يبدو متغطرسًا ومغرورًا حيث فاجأها قائلاً بسماجة:

- ماذا حدث لك يا لمياء؟! الدعوة هذه الليلة أشعر بها بلا لون ولا رائحة.. أين المشروبات اللذيذة، أم تعلمت البخل من أبيك؟!

أجابت بفتور وهى لا تزال تحتفظ بابتسامتها:

- لأنها الدعوة الأخيرة.

بدا لزجًا وهو يقول:

- خسارة.. كنت أظن أنك فهمتِ حياة الدنيا على حقيقتها.

قالت وهى تقاوم إحساسها بالغثيان:

- وهل الدنيا لا تصبح دنيا إلا بحياة السهر والحفلات العبثية؟

انشغل عنها لبضعة لحظات وهو يشعل سيجاره الضخم.. ثم قال بجدية:

- اتعلمين يا لمياء.. مشكلتك الحقيقية أن هناك ضلعًا هامًا غير متوفر لديك من أضلاع مسيرتك الحياتية.

- لا أفهم ماذا تقصد !!

قال مستطردًا بحماس :

- المال وحده قد يسحب صاحبه إلى طريق السفه والمجون، خاصة إذا كان مالاً غير مصحوب بقطرات العرق وخشونة الكفاح.. والجمال منفردًا قد يسقطك فى شباك صيادى الرغبة، وتظلين دائمًا فى صراع ما بين اختياراتك وبين رغبات الآخرين.. وغالبًا ما يكون المقابل هو المزيد من التنازلات.. و..

وتأملها بنظرة متبجحة وهو يردف قائلاً:

- ولكن إذا اكتمل الضلع الثالث بالسلطة، سوف تصبح فرصتك فى اختيار أسلوب حياتك مؤكدة، وستجدين الحماية التامة التى تحول بينك وبين المغريات المستبدة والرغبات الدخيلة، وستنعمين بمذاق الإرادة الحرة دون قهر أو تنازلات.

تراجعت بخطوة إلى الخلف وهى تقول:

- وطبعًا من هو فى مثل حضرتك يمثل الضلع الغائب.. أليس كذلك!!

أجاب بغرور :

- ليس من الضرورى أن أكون أنا بالذات.. ولكن على الأقل شخص مثلى له نفوذه وسلطاته المؤثرة.

ابتسمت بسخرية وهى تردد قائلة :

- عندك حق.. والآن اسمح لى بالانصراف لكى أبحث عن الضلع الثالث لعلى أعثر عليه من ضمن مجموعة ضيوفى.. و..

واستدارت منصرفة فى اتجاه آخر :

وقفت على بُعد بضعة خطوات من أيمن فريد، وأشارت له بإيماءة من رأسها تستدعيه لحديث منفرد، فاستأذن من مجموعته واتجه نحوها وهو مبتهج. ثم قال:

- هل أخبرتِ محمود بقرارنا!!

أجابت بشىء من التوتر:

- لم تحن الفرصة.. فأنت كما ترى المكان مزدحم.. وكأنهم يشعرون بأنها الدعوة الأخيرة.

قال مداعبًا فى عتاب رقيق :

- نعم أرى الأستاذ أحمد فوزى وهو يشغلك بحديثه.

ابتسمت متدللة وأجابت:

- يجب أن تعالج نفسك سريعًا من داء الغيرة.. فالوقت لا يسمح بذلك.

وقبل أن يعقب على كلماتها، اضطر للصمت فجأة عندما لمح شقيقها محمود وهو قادم نحوهما.

وما أن اقترب منهما حتى بادرها بكلمات مقتضبة وحاسمة:

- لمياء.. اتبعينى إلى أعلى فأنا أريدك فى حديث خاص.

و.. استدار صاعدًا إلى غرفتها بالدور الثانى.

تبعته.. وعندما لاحظت أسارير التجهم والغضب على وجهه، سألت بلهفة:

- ماذا فى الأمر يا محمود.. هل حدث مكروه؟!

جلس فوق مقعد قريب من النافذة.. ثم قال وهو يكتم غيظه:

- حان الوقت لكى نتحدث بوضوح.

اقتربت منه بخطوة وهى تتساءل من جديد :

- ماذا حدث يا محمود؟!

رفع رأسه إليها فى نظرة متأملة وهو يقول :

- ماذا تريدين بالتحديد يا لمياء.. وما الذى تسعين إليه؟!

قالت بهدوء:

- بحق.. أنا لا أفهمك الآن تمامًا.

فجأة.. نهض بانفعال وهو يردد :

- ها قد بدأتى المراوغة من البداية.

أربكتها كلماته، فأسرعت قائلة :

- ماذا تريد يا محمود؟!

- أنتِ التى ماذا تريدين.. بدأت أشعر بالارتياب من مواقفك كلها.. فأنت تبدين فى صورة الملائكة، وكل تصرفاتك شيطانية.. و..

قاطعته بانفعال حقيقى:

- ما هذا الهراء الذى تقوله!!

استمر مستطردًا وهو على حالته المتوترة:

- أنتِ تحاولين أن تضعى نفسك فى موضع الضحية المغلوبة على أمرها.. وأنت فى الحقيقة تخططين للانتقام بكل ضراوة وشراسة. و..

حاولت أن تتكلم ولكنه صرخ بقوة قائلاً:

- انتظرى من فضلك حتى أكمل حديثى معك.. الأقنعة التى تخفى وراءها أهدافك الشريرة أصبحت مفضوحة للجميع.. إياك أن تتصورى أننى لا أعلم شيئًا عن مخططاتك.. فأنتِ تمهدين الطريق أمام رياض بك لكى يتعلق بك ثم تديرى ظهرك له.. وتسعين وراء نزواتك مع أيمن فريد حتى تستقطبيه فى مصيدتك ثم تراوغينه بأحمد فوزى.. و..

واستدار وهو يوليها ظهره مردفًا :

- أحمد فوزى.. أليس هو الرجل الذى ركلك بقدميه وتركك عشر سنوات ثم عاد إليك بعد علمه بميراثك الكبير.. أليس هو الذى تعلل بأمور صبيانية لكى يتهرب من مسئولياتك.. كيف تقارنينه برجل عظيم مثل رياض بك الذى قدم ولا يزال يقدم الكثير من أجل إرضائك.

ثم عاد يلتفت إليها وقال:

- وأيضًا ذلك الغريب المدعو أيمن فريد، الذى وضعته فى دائرة الضوء لكى يكون بديلاً جاهزًا تستخدمينه فى الوقت المناسب.

وبدأت نبرة صوته ترتفع إلى حد الصياح وهو يردد:

- أنتِ إنسانة لا تفكرين إلا فى نفسك.. قمة الأنانية.. بسببك دمرتِ مستقبل خالد، ألا تعلمين أن زوجته أخذت ولديه وهربت بهما عائدة إلى بلادها، ألم يحرك ذلك ساكنًا فى مشاعرك المتبلدة.. يبدو أن خالد كان على حق عندما اكتشف تآمرك مع المحامى.. لمصلحة من تنتقمين يا لمياء.. ماذا تريدين بالضبط.. حصلتِ على الميراث الأكبر وكل أموال والدنا وأيضًا التفاف الجميع حولك.. فماذا تريدين إذن.. فإما أنك شيطانة بالفعل وإما أنك مريضة نفسية وتحتاجين لعلاج نفسى.

و.. على غير المتوقع توجهت إليه وقالت بهمس متسائلةٍ :

- هل انتهيت من حديثك؟!

أجاب وهو لا يزال فى ثورته :

- كلمة أخيرة يجب أن تعيها جيدًا.. أنا لن أسمح لك بأن تدمرينى أنا أيضًا.. لن أسمح لك بأن تفسدى العلاقة بينى وبين رياض بك الذى تعلمين جيدًا أن بإمكانه أن يلقى بى إلى الطريق.. وليس أمامك خيار غير أن تقطعى صلتك تمامًا بهذين العاشقين المخدوعين أيمن وأحمد فورًا.. وإلا ستحدث أشياء لا تحمد عقباها.. أوقفى هذه المهزلة.. لقد فاض الكيل بى.. وعليك بعلاج نفسك أولاً.

و.. استدار فى طريقه إلى الخارج، ولكنها استوقفته بهدوء قائلة:

- من فضلك.. أخبر الجميع باعتذارى.. فأنا مرهقة وأريد أن أخلد للنوم.

رمقها بنظرة ساخرة وردد قبل انصرافه:

- هذا أفضل على كل حال.

وقفت أمام المرآة فى سكون أقرب إلى الذهول، أمعنت النظر إلى ملامحها وكأنها تتأكد من حقيقة صورتها، هل هى شيطانة بحق كما وصفها محمود.. هل هى مظلومة أم معقدة نفسيًا.

انسابت الدموع فوق وجنيتها، شعرت بلسعاتها تمزق بشرتها. تكونت ستارة ضبابية بينها وبين مرآتها.. تراجعت فى فزع واستدارت نحو نافذتها تراقب الليل وتستطلع نجومه التى غشتها الغيوم.. حفيف أوراق الشجر ترامى إلى مسامعها وكأنه حشرجة أنفاسها.

الأغصان بدت كالأفاعى المتربصة فى ظلمة الليل الكئيب.. نقيق الضفادع تحول إلى نواح الثكالى والمكلومين.. الاختناق تملك من رئتيها المتقلصتين رفعت رأسها إلى السماء وهمست إلى نفسها مرددة:

يا رب أنت وحدك العالم بما فى نفسى.

أيمكن أن أكون شريرة دون أن أدرى!!

كيف يستقبل الآخرين حنانى وكأنه سم زعاف، وتبدو مشاعرى وانتمائى وكأنهما بؤر تنافر وادعاء.

أى ذنب وجُرم ارتكبته أنا يا إلهى!!

عشت حياتى بكيان أعزل لا حيلة لى أمام سطوة الحرمان.. افتقدت صدر أمى وبراءة طفولتى وأحلام الصبا وبريق شبابى، وقهرنى الخوف بعد رحيل الأمان.

عاقبنى الحب لأننى تجرأت يومًا وأسكنته قلبى، وكأن ليس من حقى أن أحتويه. قاسيت مرارة غربة الوجدان وظلمتى الأقدار وسحقنى الزمن وألقى بى خلف الليالى ليبتلعنى النسيان.

و.. عادت لتجلس على حافة فراشها وهى تدور بنظرها

تستطلع المكان وكأنها تستدعى ذكريات طفولتها، فسقط بصرها على صورة والدها المرفوعة على الجدار، فازداد نحيبها وهى تردد :

يا ترى يا أبى روحك الطاهرة تشعر بما يحدث لى الآن!!

هل تنبأت بكل هذا؟!

أرأيت كيف انهارت الصروح التى عشت طوال عمرك تشيدها حولنا.. كنت تخشى علينا من الآخرين، فجاء الغدر من أنفسنا.. تدفق الجفاء من رحم الانتماء، وراح يمزق ويشتت ويفرق بيننا وكأننا لسنا أشقاء.

هل كنت تعلم يا أبى؟! وإن كنت كذلك.. لماذا تركتنى وحيدة فى صراع غير متكافئ وأنا بلا ذنب اقترفته؟!

ليتك أخذتنى معك إلى عالمك الآخر.. ليتك أزهقت روحى بيدك بدلاً من أن تتركها تواجه عذابات النكران ونكبات الليالى.

لكنك لم تفعل.. ولم يعد فى مقدورك أن تفعل!!

و.. استلقت على ظهرها بلا مقاومة وهى مغمضة الجفنين، وكأنها استجابت مقهورة لنداء كوابيس أحلامها لتواصل رحلة الذكريات المؤلمة.

غابت عن وعيها وهى لا تدرى من الذى يترصد لها.. ويترقب للانتقام منها.

هل هو عناد الزمن.. أم انتقام الحب!!

- 8 -

العاشرة والنصف صباحًا.

الأمطار تهطل بغزارة، والزحام يتكدس أمام بوابة السجن الرئيسية.

اليوم هو موعد الزيارة المعتادة لأسر المسجونين.. مستويات اجتماعية مختلفة، وأيضًا انطباعات الزائرين أكثر تباينًا ما بين الوجوم والبهجة والحسرة واللهفة.

لم يصدق خالد نفسه عندما رأى لمياء تقف أمامه بمفردها.. وبادرها متسائلاً :

- أختى لمياء.. كيف أتيتِ بمفردك؟!

- ما هى أحوالك يا خالد؟

قال هامسًا وهو مطأطئ الرأس :

- أحوالى!!

انقبض صدرها وهى ترى أخاها وقد تبدلت ملامحه، وكأنه أضيف إلى عمره سنوات كثيرة خلال الأشهر القليلة التى مضت على محبسه.

حاولت أن تبدو طبيعية وهى تقول:

- لجأت لأحد معارفى لكى يرشدنى لطريقة زيارتك.. والحقيقة لولا مساعدته لما استطعت الوصول إليك.. فأنا..

قاطعها بانكسار قائلاً :

- هل علمتِ بما حدث؟!

صمتت للحظة، فأردف مسترسلاً :

- لقد هربت زوجتى بأولادى وعادت إلى بلادها، بعد أن أقامت ضدى قضية تطلب فيها بالانفصال.. و..

مسح جبينه بكفه المرتعش واستطرد:

- وسوف تحصل عليه بالتأكيد بسبب ظروفى الحالية.

قالت على استحياء :

- ألم يتدخل أحد لكى يمنعها أو يوفق بينكما!!

أجاب بنبرة ملؤها الحزن:

- لم يأت أحد لزيارتى منذ ثلاثة أشهر.. ولم أكن أتوقع زيارتك أيضًا.

كاد أن ينفجر قلبها عندما لاحظت قطرات دموعه وهى تنساب من عينيه بلا توقف وهو يردد متوسلاً بضعف مهين:

- أرجوك يا لمياء لا تتخلى عنى وأنا فى مثل هذه الظروف.. فأنا أخوك حتى ولو كنت أخطأت فى حقك كما تتصورين.

قالت بصدق :

- كيف أتخلى عنك.. انت أخى وأنا تحت أمرك فى أى شىء تطلبه.

أسرع قائلاً :

- نبيل .. طفلى المسكين فى حاجة إلى الرعاية.. أمه أصيبت بمرض مفاجئ.. وأصبحت لا تملك أيضًا مالاً يعينها على الحياة.. وأنا هنا عاجز تمامًا.. و..

ردت بلهفة متسائلة :

- أى طفل .. من هو نبيل هذا.. وعن أى أم تتحدث؟!!

أجاب متشككًا:

- ألم يخبرك محمود بالأمر؟!

- لم أسمع عن هذا من قبل.

قال وهو يكتم نحيبه :

- نبيل ابنى من الزوجة الثانية.. أرجوك يا لمياء أن ترحمى عجزى.

أجابت وهى تقاوم ذهولها :

- أية مبالغ تريدها ستكون تحت تصرفك فورًا.

قال بلهفة:

- سأعطيها عنوانك عندما تتمكن من زيارتى.. إنه طفل رائع يا لمياء وسوف تحبينه منذ الوهلة الأولى.. و..

واستعاد اتزانه وهو يقول بخجل :

- اعذرينى يا أختى.. كان المفروض أن أسألك عن أخبارك منذ البداية، ولكن المفاجأة شلت تفكيرى.. طمئنينى يا لمياء ما هى أحوالك!

غابت مع نفسها للحظات، وكأنها تفكر فى أن تصرح له بسبب زيارتها ولكنها آثرت الكتمان بعد ما سمعته عن ظروفه.. وعادت تقول:

- أحوالى بخير.. المهم أنت لا تشغل بالك بأى شىء.

فاجأها بسؤاله:

- ومحمود هل يداوم على زيارتك؟

- نعم .. نعم بكل تأكيد.

عاد يتساءل باقتضاب :

- ورياض الشريف .

انتبهت إليه وهى تهمس :

- ماذا به !!

- أقصد هل ترينه أيضًا.

- فى بعض الأحيان.

قال بنبرة جادة :

- هو رجل مخلص على كل حال.. وأنا أراه شديد الرغبة فى الارتباط بك و..

قاطعته قائلة بلا تردد:

- أنا لا أفكر فى هذا الأمر.. وأعتقد أن الوقت غير مناسب للحديث فى هذا الشأن.

عقب بتلقائية:

- عندك حق!!

تأهبت للانصراف وهى تقول:

- إن شاء الله أراك بخير فى الزيارة القادمة.

و.. استدارت منصرفة.

استقلت السيارة الأجرة فى طريقها إلى محطة القطار، وهى شاردة وقد تشابكت أفكارها واختلطت المعانى فى ذهنها.

جاءت لتخبره بقرار ارتباطها بأيمن فريد، ولكنها لم تستطع

وعادت محملة بمسئولية جديدة مؤلمة.. مأساة أخرى تضاف إلى مآسيها السابقة.

وكأنها رسالة من مصدر غامض يهمس فى أعماقها مرددًا:

لا ليس من حقك أن تفكرى فى نفسك!!

فجأة استدعت كل حواسها إلى نظرها، تصورت للحظة أن رؤيتها مجرد خيالات. ولكن الأمر كان حقيقة بالفعل.. رأت سيارة تمرق من جانبها يقودها رياض الشريف بنفسه وبجواره يجلس أحمد فوزى، وهما فى حوار متبادل بدا انفعاليًا من ملامحهما.

همست إلى نفسها فى حيرة وتشكك.

.. ما الذى جمع بينهما؟!!

ولكن سرعان ما تلاشت الصورة من ذهنها، فالموضوع أصبح لا يعنيها.

وعادت مرة ثانية إلى أحداث لقائها بأخيها، وهى تسرد فى ذاكرتها مراحل طفولته وصباه وشبابه، وما وصل به إلى تلك الحال.

لم تشعر بزمن المسافة فى رحلة القطار بعد أن استقلته، وحرصت على أن تتصل بأيمن فريد لكى ينتظرها فى محطة طنطا.. أرادت أن تحيطه بكل ما حدث مع خالد، فهى تعلم أنه كان شغوفًا لمعرفة تفاصيل اللقاء.

وبمجرد وصولها اصطحبها إلى إحدى الكافتيريات القائمة عند أول البلدة، وبادرها بشوق حقيقى قائلاً:

- هذا اليوم مر بى وكأنه عام كامل.

ابتسمت فى دلال وقالت :

- بالنسبة لى كان عامين.. و

وبدأت تسرد عليه ما حدث مع أخيها.. لم تخفى عنه شيئًا، وأخبرته عن مفاجأة خالد لها بزواجه الثانى وموضوع ولده نبيل.. وكيف اضطرت أن تكتم عنه قرارهما بالارتباط.

لاحظت ملامح عدم الرضى على وجهه مما دفعها أن تقول:

- على كل حال سوف يعلم إن آجلاً أو عاجلاً.. ولكن ما أثار شجونى أن أحدًا لم يفكر فى زيارته منذ فترة طويلة.. كدت أفقد اتزانى أمامه واستسلم للبكاء بعد أن شاهدت حالته المؤلمة.

أجاب متعاطفًا معها :

- ستمضى الأيام سريعًا.. وبإذن الله سيعود إلى حياته الطبيعية.

وضعت كفها على يده، ثم سحبتها سريعًا بعد أن تداركت.. وقالت:

- بالمناسبة.. نسيت أن أخبرك بشىء لفت نظرى!

سأل باهتمام:

- ما الذى يحيرك؟

أجابت بتلقائية :

- رأيت اليوم رياض الشريف وأحمد فوزى فى سيارة واحدة معًا!!

قال بلا اكتراث :

- ما الغريب فى هذا!!

- لم يسبق لهما أن تعارفا إلا مرة واحدة.. ثم إننى تذكرت ما حدث فى أول لقاء بينهما، عندما لاحظت أن رياض يعرف الكثير عن أحمد دون أخبره بذلك.

عادت ملامحه تكتئب وهو يقول وكأنه يحدث نفسه :

- بصراحة أحمد فوزى هذا لا أجد مبررًا الآن لتواجده فى مكاننا.

قالت بجدية :

- ومن قال لك إنه سيتواجد بعد الآن.. لقد حسمت الأمر واتخذت قرارى وانتهى الموضوع تمامًا.

أجاب بحماس قائلاً :

- اعلمى أننى لن أسمح لأى مخلوق فى الدنيا أن يفرق بيننا.. ولا يخدعك مظهرى الطيب فأنا من أجلك بإمكانى أن أفعل ما لا يخطر على بال أحد.

قالت وهى تحثه على النهوض، لكى ينصرفا:

- وأنت أيضًا يجب أن تعلم أننى مستعدة لأن افتديك بالعالم كله.

و.. اشتركا فى ضحكة من القلب وهما فى طريق العودة.

مرت الليالى هادئة، بالرغم من التغير الحاسم فى طريقة أسلوب حياة لمياء، وانعكس ذلك على كل من له علاقة بها.

اختفت الدعوات والسهرات، وكان رياض الشريف أكثر الناس الذين شعروا بذلك التغير بسبب إحجام لمياء عن منحه فرصة اللقاء بها كثيرًا، وإذا جمعهما لقاء بالمصادفة تكون حواراتها معه مقتضبة وبحرص شديد يقترب من الدبلوماسية وكأنها تمهد بحذر لفكرة ارتباطها بشخص آخر غيره.. كذلك جاء التغير على هوى محمود الذى اعتبره عودة حميدة لحياة لمياء السابقة، والتى كانت لا تعرف من مقوماتها غير الطاعة والالتزام والخنوع، وهذا سوف يساعد على تحقيق رغبته الملحة فى أن ترتبط شقيقته بشريكه رياض الشريف.

ولكنها وجدت صعوبة كبيرة فى ممارسة ذلك التغير مع أحمد فوزى الذى وجد كل الظروف قد أصبحت سانحة أمامه لكى يحقق أمنيته القديمة فى الزواج من معشوقته التى ضحى بالكثير من أجلها، فالأقدار تولت إتاحة تلك الفرصة بشكل غير مباشر.

فوالدها توفى وأخوها مسجون. والثانى مشغول، كما أنها حسب تصوره انتظرته عشر سنوات، فما الداعى لتأخر إعلان زواجهما.

التقى بها عند ممر حديقة الزهور، وسألها بوضوح:

- إلى متى سننتظر يا لمياء!!

ضمت شفتيها بامتعاض ولم تعقب على سؤاله.. فعاد يقول بإلحاح:

- اعتقد أن الظروف مهيأة تمامًا الآن.. فأنتِ أصبحت فى موقف يمنحك القدرة على اتخاذ قرارك دون استشارة أحد.. وأنا ظروفى المالية جيدة وسأعود للتجارة والتصدير.. فلا مشكلة إذن!!

رددت مع نفسها قائلة :

.. كيف لم يفهم هذا الرجل؟!!

ثم التفتت نحوه وقالت بفتور :

- الا ترى أن أمور كثيرة قد تغيرت عن الماضى!

أجاب بثقة :

- فى صالحى.

استفزتها اجابته وأسرعت قائلة :

- ولكنها ليست فى صالحى أنا.

حاول التغابى وهو يتساءل :

- كيف ؟!

وبنبرة مستاءة قالت :

- أنا تأكدت تمامًا أن الماضى من المستحيل أن يعود.. الماضى بكل أحداثه ومشاعره أيضًا.

أجاب ببلادة غير متوقعة :

- لا تفكرينى بالماضى.. كانت أيامه مريرة، والحمد لله أننا نجونا منها.. واستطعنا أن ننتصر لحبنا.

توقفت عن السير، بعد أن فاض الكيل بها.. وقالت بحدة:

- أنت تتعمد ألا تفهم ما أقصده.. أم أنك بالفعل لا تدرك ما أعنيه!!

قال وهو يدقق النظر إلى عينيها:

- لا تستسلمى للإحباط يا لمياء.. فما كان بينى وبينك أقوى بكثير من أية أحداث مرت عليك أثناء فترة غيابى.

- أنا لست محبطة.. ولكنى أتعامل مع واقعى الجديد.

تساءل بإصرار :

- وهل واقعك الجديد يطالبك بأن تدمرى ما كان بيننا من ذكريات ومشاعر لا زالت تنبض فى قلبينا.

قالت وقد أعياها أسلوب المراوغة :

- أنا لا أنكر ما كان بيننا فى الماضى .. ولكن.. الحاضر أيضًا يفرض وجوده علينا.. ونحن بشر ولا شىء يستمر على حاله، فالأقدار هى صاحبة الكلمة الأخيرة.

- الأقدار هى التى جمعتنا مرة ثانية.

قالت كالهمس :

- أرجوك يا أحمد أن تفهمنى.. فأنا..

ولكنها توقفت عن الحديث، عندما ظهرت سيارة أجرة واستقرت أمام بوابة الڤيلا وهبطت منها امرأة برفقة طفل صغير.

التفت إليها أحمد قائلاً:

- يبدو أن لديك زائرين.. سأتركك الآن وأعود إليك فى وقت لاحق.

أشارت برأسها بالموافقة، وهى تتابع وقوف المرأة وهى تتلفت يمينًا ويسارًا باحثة عن أحد قد يرشدها إلى طلبها.

اقتربت منها وسألتها بهدوء:

- هل من خدمة أستطيع أن أقدمها إليك؟

أجابت السيدة :

- هل هذه فيلا الحاج كمال سليمان؟!

أومأت برأسها بالموافقة.. وقالت باقتضاب:

- نعم هى.

- حضرتك الآنسة لمياء؟!

- نعم.

التفتت المرأة إلى سائق السيارة الأجرة وصرفته.. ثم عادت إليها بوجه بشوش وقالت بارتياح:

- أنا هدى زوجة أخيك خالد، وهذا نبيل ولده.

كان لقاء تجسدت فيه كل معانى الإنسانية الرائعة، تعانقا بود شديد وصادق. ضمت لمياء الطفل إلى صدرها وشعرت به وكأنه وليدها الأول.. حواراتهما بدت تلقائية ودافئة وكأنهما على علاقة امتدت لسنوات طويلة.. عرفت من هدى أمورًا كثيرة لم تكن تعلمها عن طبيعة شخصية خالد، تحدثت معها طويلاً ولم يكن يفترقان إلا سويعات قليلة من الليل، وفى أول كل اشراقة صباح تسرع كل منهن إلى الأخرى بلهفة حقيقية ليستكملا معًا ذكرياتهما الخاصة والعامة. كلتاهما كانت فى حاجة إلى الأخرى، وعمرهما المتقارب أضفى على تلك المشاعر ما يجمع بين شقيقتين من أسرة واحدة.

ذلك الاحساس الذى طالما عانت لمياء كثيرًا من افتقاده فى مشوار حياتها. كم تمنت فى أوقات حاسمة أن تكون لديها أخت تبثها همومها وتطلعها على خبايا أعماقها التى كانت من المستحيل أن تبوح بها إلى أحد آخر وبالأخص والدها، ظهرت هدى ففجرت عندها أحاسيس ظلت دفينة فى صدرها تحت قبضة التقاليد والأعراف الأسرية التى فى مثل ظروفها.. أصبحت تضحك من قلبها وتميل إلى الثرثرة طويلاً على غير طبيعتها وهى آمنة بلا تحفظات أو محظورات.

وأيضًا هدى تخلصت بالتدريج من مسحة الحزن التى طالما استقرت على ملامحها منذ أن ابتليت بمرضها فى السنوات الماضية.. حدثتها عن زواجها بخالد وكيف أقنعها بضرورة كتمان نبأ الزواج خشية من والده، وهو ما جعل أسرتها تتخذ موقفًا متشددًا منها إلى حد المقاطعة، وأخبرتها أيضًا كيف كان وقع الصدمة عليها عندما علمت فيما بعد أنه متزوج من أخرى أجنبية. وعن مأساتها الأخيرة بعد دخوله السجن فى توقيت هى فى أمس الحاجة إليه. وخاصة بعد أن قرر الأطباء ضرورة إجراء عملية نقل كبد لها.

كانت لمياء تنصت إليها باهتمام بالغ، متعاطفة معها بإحساس صادق كان يبكيها فى أغلب الأحيان.. وكأنها تبكى على حالها هى!!

وصلت لحظة مرارة الشجن إلى قمتها عندما استرسلت هدى قائلة:

- التفكير فى مصير نبيل يقهرنى كل يوم.. فأنا يتيمة الأم ولا أعرف لمن سأتركه أثناء فترة إجراء العملية.. وماذا سيكون مصير نبيل إذا ما فشلت العملية وانتهت حياتى. ابنى المسكين كيف سيواجه حياته وهو طفل صغير لا حول ولا قوة لديه. وهو لم يكمل عامه الثالث بعد!!

ومن خلال شفتين مرتعشتين قالت لمياء:

- إن شاء الله ستعودين إليه سالمة، وسترين يومًا أحفادك منه.

ترقرقت ابتسامة ذابلة فوق فمها.. ثم قالت:

- لست متفاءلة.. فظروف خالد الأخيرة قضت على آخر أمل لدى فى الشفاء.

أسرعت قائلة بحماس شديد:

- لا تشغلى بالك بأى شىء.. سيتم إجراء العملية ولو كانت تكلفتها هى كل ما أملك من أموال.. ولا تقلقى بشأن نبيل فهو من الآن تحت رعايتى ومسئوليتى إلى أن تعودى إلينا بإذن الله بكل عافية.

فوجئت بها ترتمى فوق صدرها وقد أجهشت فى بكاء مرير.. مرددة:

- إذا كتب لى النجاة سيكون موقفك هذا فى عنقى إلى نهاية عمرى.

ربتت على كتفها بحنو وقالت وهى تحاول التماسك:

- لقد نسينا موعد أم سعيد فهى تدعونا للغذاء معها اليوم.. هيا بنا.

وتعانقا بحب قبل أن يتأهبا للانصراف.

- 9 -

صباح يوم من أيام شهر يوليو، الشمس مشرقة بقوة بالرغم من أن الساعة لم تتجاوز العاشرة.. بحر الاسكندرية يكاد يكون بلا أمواج، والشاطئ يكتظ بالمصطافين من كل مكان، السيارات متلاحقة بلا ضوضاء والباعة الجائلون منتشرون بجوار سور الكورنيش يعرضون خدماتهم لمختلف ألوان بضاعتهم.

لمياء تحمل نبيل إلى صدرها، تسير به ونصف وجهها متجه نحو البحر، تستطلع الأفق تارة وتجلس على الأرائك المتراصة بطول الكورنيش تارة أخرى..

تداعبه بسعادة وتمطره بقبلاتها بحنان دافئ.

فهى عائدة لتوها من المستشفى التى سوف تقيم فيها هدى طوال فترة إجراء العملية والنقاهة، اطمأنت عليها وعلى كافة الإجراءات بعد أن سددت كل التكاليف.

كانت المرة الأولى التى ترى فيها الاسكندرية.. راودها إحساس بأنها قد عاشت بها من قبل، فهى عرفتها من خلال الأفلام السينمائية فقط، خُيل إليها أنها تتسمت نسيمها كثيرًا، ورأت كل

الوجوه بنفس ملامحها.. لا شيء تغير فيها وكأنها صورة فوتوغرافية قد دبت فيها الحياة فجأة.

هكذا هى الاسكندرية لكل من يرتادها حتى ولو كانت المرة الأولى!!

وكأن نبيل هو كلمة السر التى فتحت نافذة الكون لتطل منها وترى الحياة على حقيقتها قبل أن تلوثها النفوس المريضة.

براءة الطفولة انتصرت على الهموم والمشاكل والصراعات والإحباطات والأشجان والأحزان، رأت من خلال صفاء نظرة عينيه دنيا غير دنياها.. عطر الحب الآمن امتزج بأنفاسها، وكل الملامح البشرية اتسمت بالطيبة والنوايا الحسنة، ونبرة الأصوات من حولها بدت وكأنها أنغام للبلابل.

انتصرت الطفولة البريئة على شراسة الأحقاد وأطماع الحساد ومكابرة العناد.

انتصرت على ذكريات الماضى وحيرة الحاضر والخوف من المستقبل.

وكأن عالمها قد تقوقع داخل ذلك الكيان الصغير والضعيف، عاشت معه وبه بكل خلجات حواسها بلا تمهيد أو تخطيط.

رأت فى نبيل كتابًا مفتوحًا، راحت تقلب صفحاته فلم تجد

غير أسطر مضيئة تزينت حروفها بأسمى معانى الرضى والقناعة وهدوء السريرة... صفحات تنبض بالحب والتسامح.

راودها خاطر بأن تذهب إلى مصنع العطور الذى يمتلكه أيمن فريد، فقد لاحظت أن هاتفه المحمول مغلق الخط منذ يومين.

رددت مع نفسها قائلة :

.. لابد وأنه غاضب منى لأننى تلكأت فى إعلان ارتباطنا!!

ولكنها تراجعت عن الفكرة، وقررت العودة إلى طنطا بالسيارة الأجرة التى جاءت بها.

اتجهت إلى الفندق الذى أمضت فيه ليلتها مع نبيل، واستدعت السيارة واستقلتها لتعود بها إلى منزلها.

عند وصولها لاحظت بعض الغرباء يقفون أمام الباب الخارجى للڤيلا وكأنهم فى انتظارها، وما أن هبطت من السيارة حتى تقدم أحدهم منها وسأل بهدوء:

- حضرتك الآنسة لمياء كمال؟!

أجابت من خلال دهشتها :

- نعم أنا !

- مقدم شريف شوقى من المباحث الجنائية.

تملكتها الحيرة فصمتت.. بينما أردف الضابط قائلاً بتأدب:

- اتسمحى لى بالدخول.. فلدى بعض الاستفسارات أريد أن أستوضحها منك!

قالت وهى شاردة :

- تفضل .

ورافقته إلى الداخل، وبمجرد ظهورها أسرعت نحوها إحدى عاملات الڤيلا وقالت مرددة :

- البك جاء للسؤال عنك أمس واليوم.

لم تجبها.. وأشارت إليه بالجلوس بعد أن سلمت الطفل للعاملة.. وهمست بصعوبة:

- خيرًا يا حضرة الضابط.

بدت ملامحه هادئة وهو يسألها قائلاً :

- ما هى علاقتك بأحمد فوزى؟!

أخذتها المفاجأة.. ورددت فى ذهول:

- أحمد فوزى.. نعم أعرفه.

- أسألك عن طبيعة علاقتك به.

أجابت بنبرة مرتبكة :

- تقدم لطلب يدى من عشر سنوات تقريبًا.. و..

لاحظت من نظرة عينيه أنه يحثها على مواصلة الحديث.. فأردفت قائلة باقتضاب:

- ولكن طلبه رفض من عائلتى.

قال بإصرار:

- أريد أن أسمع التفاصيل بدقة.. و..

غاص بنظرته فى عينيها، واستطرد قائلاً بحزم :

- وأرجو ألا تسقط من ذاكرتك أية معلومات عنه وعن علاقتك به.

استشعرت بخطورة الموقف وقالت مستسلمة ومؤيدة لرغبته:

- طبعًا بالتأكيد!!

مضت الساعة، وكأنها دهر كامل عليها وهى تسرد كل التفاصيل والمعلومات التى تعرفها عن أحمد فوزى.. أخبرته بكل شىء، كيف اختفى عشر سنوات ومتى عاد للظهور من جديد يكرر رغبته بالزواج منها.. وعن مبررات اختفائه التى طرحها أمامها، وأيضًا عن قرارها الأخير بإنهاء تلك العلاقة لأسباب تخصها، وأوضحت تلك الأسباب.

فاجأها بسؤاله :

- متى رأيته آخر مرة؟!

أسرعت قائلة :

- منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا.

قال وكأنه أطلق عليها عيارًا ناريًا :

- وماذا عن رياض الشريف وأيمن فريد؟!

وقبل أن تلملم شتات ذهنها، نهض فجأة متأهبًا للانصراف.. ثم التفت نحوها مستطردًا:

- على كل حال سأستدعيك لنستكمل حوارنا.. و..

وقفت بصعوبة لكى تصطحبه إلى الباب الخارجى.. ثم همست بنبرة متحشرجة:

- هل لى أن أعرف ماذا فى الأمر؟!!

رمقها بنظرة كالصقر.. ثم تساءل بهدوء:

- ألا تعلمين!!

نفت بإشارة من رأسها وهى صامتة.. فأردف وهو فى طريقه للإنصراف:

- وُجد أحمد فوزى مقتولاً وجثته ملقاة فى الأرض التى يستأجرها أيمن فريد.

تهاوت على مقعدها بعد أن خذلتها قدماها ولم تستطع النهوض مرة ثانية وهى تردد فى ذهول :

- مستحيل.. مستحيل!!

قال قبل أن يغلق الباب خلفه :

- سأنتظرك صباح الغد فى مكتبى.. احرصى على ألا تتأخرى.

و.. تركها منصرفًا.

تلاحقت الأحداث سريعًا، وبدأت التحقيقات تكشف عن الكثير من النوايا المستترة، فالجميع كان فى محيط دائرة الشك.. واستطاع المقدم شريف شوقى أن يستجمع خيوط القضية ويصل بها إلى نتيجة مؤكدة، وبأن لمياء كمال هى محور كل المبررات ودوافع الجريمة حتى بالنسبة لأخيها محمود وإرتباط مصير مشروعه بمصير علاقتها برياض الشريف الذى لم ينف أثناء التحقيقات معه رغبته القوية فى الزواج منها.. وكذلك أيمن فريد الذى أقر بإستيائه من ظهور أحمد فوزى من جديد فى حياتها وأرجع تلكؤها عن إعلان ارتباطها بسبب ذلك العائد من غربته.

فجأة وجدت لمياء نفسها محاصرة بكل تلميحات اللوم والتأنيب، حتى كادت تشعر بأنها القاتلة دون أن تدرى.

لم تعد قادرة على تحمل الضغوط النفسية التى تكالبت على

وجدانها وراحت تعتصره بشراسة وبلا رحمة، ولا على ملاحقة شتات أفكارها التى سقطت فى قبضة الظنون وتنقلت بها من شك إلى آخر.

كان محمود أكثر وضوحًا فى اتهامها بأنها سبب تلك الأحداث عندما بادرها بنبرة مستفزة.

- ألم أحذرك من قبل بأن أسلوبك فى الحياة سوف يؤدى بنا إلى الدمار.. هل أنتِ سعيدة الآن بما حدث؟

- لماذا تتعمد إدانتى دائمًا، وكأنك لست أخى الشقيق.. أنا أختك فكيف تتصور أننى اتعمد إيذاءك أو اعتراض مصالحك؟!

فيجيبها بسخرية وتهكم :

- قابيل وهابيل كانا أشقاء أيضًا.

- أنانيتك هى التى أعمتك عن قدسية تلك الرابطة، فاستهنت بها وأصبحت لا تفكر إلا فى نفسك ورغباتك.

يعود قائلاً والغل يكاد ينفجر من مقلتيه :

- أنت معقدة.. ولا أستبعد أن يكون كل شىء من تدبيرك.

وهكذا .. ما تكاد تنتهى من معاناة حوارها مع أخيها، حتى يتلقفها لقاؤها بأيمن فريد الذى يفاجأها بسؤاله :

- لماذا لم تخبرينى بحقيقة العلاقة التى بينك وبين رياض الشريف؟!

- لم تكن بينى وبينه علاقة خاصة.

فينظر إليها متشككًا وهو يقول :

- ألم يعرض عليك رغبته فى الزواج منك وبإلحاح؟

فتجيبه على استحياء :

- نعم.. ولكنى تصديت لتلك الفكرة.

- ألا يكفى هذا المبرر لكى تخبرينى به.. أم كانت لديك رؤية أخرى؟!

فتضطر للدفاع عن موقفها وهى أقرب للانهيار :

- لا تظلمنى يا أيمن.. فالأمر بحق لا يعنينى ولم أكن أود أن أشغلك بموضوع لا يستحق التفكير فيه.

تجرعت حسرتها وهى تسمعه مرددًا :

- لست أدرى من الظالم ومن المظلوم بيننا!!

كما لم تسلم لمياء من كلمات رياض الشريف المبهمة عندما استوقفها وهى تتنزه مع نبيل بين أحواض الزهور.. وقال:

- لا أحد يستحق كل هذا الحزن الذى أراه على ملامحك.

فتضطر لأن تسايره على مضض قائلة :

- التبلد ليس من خصالى.. وعلى كل حال هناك فرق ما بين الحزن والشعور بالاستياء والتقزز.
- أنت مفرطة الحساسية.. وسيأتى يوم تدركين فيه أننى كنت المخلص الوحيد لك.. ولا زلت!

فتتعمد أن تتجاوزه منصرفة، وهى تقاوم إحساسها بالغثيان.

كانت أم سعيد هى الوحيدة التى تدرك جيدًا مدى المعاناة التى تقاسيها لمياء.. فهى تعرفها وتعرف قدرتها على إخفاء آلامها عن الآخرين.

ولذلك لم تتردد فى أن تفاتحها قائلة :

- هكذا نصيبك من الدنيا يا ابنتى.. كتب عليك أن تتحملى تصرفات غيرك.

أجابت بارتياح وعفوية :

- طالما أنتِ فى حياتى فكل شىء يهون.. ولكن ما يؤلمنى هو ظلم الآخرين لى دون ذنب.. خاصة الذين منحتهم حبى ووجدانى وكل كيانى.

أدركت أم سعيد بفطرتها ما تعنيه لمياء فعقبت قائلة :

- اعذريه يا ابنتى.. فهو أيضًا ناله من القلق والتوتر الكثير.. فضابط المباحث لم يتركه طوال الفترة الماضية، كل يوم يستدعيه وكل ساعة تحقيقات.. فماذا تنتظرين منه!!

- وما ذنبى أنا!!

تساءلت وكأنها فى حديث مع نفسها :

- ما يحيرنى يا لمياء هو ما السر فى وجود المرحوم على أرضنا.. فهو ليس على علاقة بأيمن بك ولا يعرف أيضًا أحدًا هنا.

صاحت ونهضت فجأة، وكأنها تعرضت للدغة ثعبان.. ثم التفتت نحوها قائلة:

- انتظرى يا أمى.. لقد أثرتِ انتباهى لشىء فى غاية الأهمية..

- ما هو.. وماذا بك؟!

أسرعت تقول بحماس :

- رياض الشريف.. لماذا أنكر معرفته بأحمد فوزى!!.. لقد علمت هذا من ضابط المباحث.

سألتها باهتمام :

- وهل كان يعرفه.. فأنا لم ألاحظ ذلك .. و..

قاطعتها بإصرار :

- أنا متأكدة أنه كان على علاقة به.. لقد رأيتهما معًا وأنا فى القاهرة.. كما أننى لاحظت معرفة رياض بمعلومات كثيرة عن أحمد دون أن أخبره بها.

رددت بنبرة هامسة :

- هل تقصدين أن ....

لاحقتها قائلة :

- ولِمَ لا .. فرياض عنده الدافع لذلك.. ثم إننى شعرت من حديثه الأخير معى إنه لا يحمل مشاعر طيبة تجاهه .. و..

صمتت للحظات ثم أردفت :

- يجب أن أذهب الآن.. قد تكون تلك المعلومة هى مفتاح الحقيقة.

- إلى أين ابنتى؟!

- سأذهب إلى المقدم شريف شوقى.. سأخبره بكل شىء، وهو بالتأكيد سيجد التفسير المناسب لتلك المعلومة.

فى داخل السيارة الأجرة، شعرت بأنفاسها وهى تلهث وكأنها تعدو على قدميها.. استعادت فى ذاكراتها كل التلميحات والنظرات التى كانت تربط ما بين أحمد فوزى ورياض الشريف، وازدادت يقينًا بأن هناك أمرًا غامضًا يدور بينهما.

جلست أمام المقدم شريف وهى على حالتها من التوتر.. وبادرته قائلة:

- شريف بك.. جئتك بمعلومة قد تفيد فى بحثك للقضية.

نظر إليها باسترخاء.. ثم قال بهدوء:

- أرجو ألا يكون قد فات موعدها.. ماذا لديك يا آنسة لمياء؟!

انطلقت بحديثها بلا توقف، وراحت تخبره بكل ظنونها مؤكدة بأنها شعرت بذلك الغموض فى أكثر من لقاء جمع ما بين أحمد ورياض.. و..

صمتت فجأة عندما لاحظت ابتسامة خفيفة تداعب شفتى الضابط، وهو يتابع حديثها بلا اكتراث غير متوقع.. وفوجئت به يقول باقتضاب مثير :

- لقد تأخرتِ يا آنسة.

اهتزت أهدابها من شدة الارتباك.. وهمست بنبرة مترددة :

- لم أتعمد ذلك.. فأنا..

ولكنه استوقفها مقاطعًا وقال بجدية :

- بالأمس فقط.. تم القبض على رياض الشريف بعد أن أثبتت التحريات أنه القاتل.

كتمت صرختها وهى تنظر إليه فى ذهول.. بينما استطرد هو قائلاً:

- لولا تأخرك الابلاغ عن تلك المعلومة، لكان تم القبض عليه أسرع من ذلك.

كادت المفاجأة أن توقف نبضات قلبها عندما استطرد قائلاً:

- إنهما من ضمن تشكيل عصابة للمافيا الإيطالية فى تجارة المخدرات.. والقتيل هو الذى خطط لرياض بأن يحضر إليكم ويشترى أراضيكم كنوع من الانتقام واذلالكم جميعًا بعد موقفكم معه.. ولكن الأمور سارت على عكس ما أراد.

بصعوبة بالغة استطاعت أن تتساءل:

- كيف!!

رمقها بنظرة سريعة، وقال فى شبه ابتسام :

- لأن رياض وقع فى حبك بالفعل.. فأراد أن يتخلص من منافسيه بضربة واحدة بأن يقتل أحمد فوزى ويلقى بالتهمة على أيمن فريد.. و..

واستعاد ملامحه الجادة ثم أردف :

- وللأسف ستصيبكم بعض الخسائر نتيجة تلك المؤامرة.. فسوف تصادر كل ممتلكات رياض الشريف، بما فيها الأرض الخاصة بميراث أشقائك بعد أن استغلها فى زراعة نبات البانجو.

أسرعت قائلة :

- كل شيء يهون، المهم أن الحقيقة ظهرت.. و.. أيمن برئ.

ابتسم باتزان معقبًا:

- غريب أمر الحب.. فكل الأشياء تهون من أجله!!

نهضت وقد اتسعت شفتاها بابتسامة عريضة.. وقالت مبتهجة :

- هناك فرق يا حضرة الضابط!!

واستدارت منصرفة.

- 10 -

الحب.. ذلك الإحساس الذى يلهب خيال الشعراء، ويهيم به الأدباء ويحلق معه الفنانون.. وتذوب فيه قلوب العشاق.

الحب.. الذى سجل التاريخ باسمه أعذب القصص وأغرب الأساطير وتغنت به البشرية بعد أن اعتلى قمة المعانى.

ها هو يكشف عن وجهه الآخر.. الوجه الذى لا يراه إلا أناس بعينهم، يختارهم هو بإرادته لا بإرادتهم، ويتعامل معهم بديكتاتورية لا مثيل لها حتى فى أحلك العصور الظالمة.

نفوس بريئة وطاهرة أسلمت نفسها طواعية له، فاستعبدها وسخرها لأهدافه ليصبحوا أداة فقط لإسعاد الآخرين، ولا يحق لهم أن يتعايشوه أو ينعموا به.

فما أتعس هؤلاء الذين يعاقبهم الحب.. بالحب!!

الشبيهان.. لمياء وأيمن..!!

كانا من ضمن هؤلاء الذين اختارهم الحب بإرادته، واحتوى كيانهما بكل خلجاتهما من مشاعر وأمانى وأحلام.

أصبحا مرآة للحب تعكس إرادته وعطاياه للآخرين.. كلاهما أدار مسئولياته طواعية وبكل تضحية بلا تذمر أو تردد.

فكما تنسحب الغيوم ببطء من تحت قرص الشمس، وتكف الأمواج عن تلاطمها القوى مع صخور الشاطئ، وتهدأ العواصف الترابية عن مهاجمة المدن.. وتتلاصق شقوق الأرض الجافة بعد أن تهطل الأمطار عليها، وكما يكتمل نمو الزهرة فتتفتح وريقاتها، وتنضج الثمرات فوق أغصانها.

بمثل ذلك الإحساس استقبلت لمياء كمال مهامها الجديدة بكل قناعة ورضى، حيث أصرت على استضافة هدى وابن أخيها بالفيلا لكى تستكمل فترة علاجها والنقاهة بعد نجاح عمليتها.. وألحت بشدة على استدعاء محمود من عزلته التى اختارها مقهورًا بعدما صودرت أموال وأملاك رياض الشريف وبالتالى تبخرت أحلامه مستسلمًا لحالة من الاكتئاب الشديد.

وعندما حضر إليها وهو يلملم أطراف الفشل وخيبة الأمل، كان استقبالها له يفوق تصوره وهى تحتضنه بحنان صادق قائلة:

- يا أخى الحبيب.. كم أنا سعيدة لأنك استجبت لطلبى.. فأنا فى أشد الاحتياج إليك.. وجاء دورك لتتحمل المسئولية إلى أن يعود أخونا بالسلامة ليعاونك.

نظر إليها فى شرود لعدة لحظات.. ثم همس بانكسار:

- لم يعد لى حق فى شىء هنا.. فكل ما أملك قد فقدته مع الكارثة بسبب جشعى وأنانيتى.

قالت بحسم :

- الماضى صفحة انطوت.. ويجب ألا نعود للحديث عنها.

أجاب وهو مطأطئ الرأس :

- قد تكون صفحة وانطوت.. ولكنها حتمًا ستلقى بظلالها على مستقبلى الذى لم يعد مبشرًا بأى شىء.

- تشاؤمك هذا يزعجنى، وأيضًا يؤذينى.. فأنا لجأت إليك لتشد من أزرى وتساندنى.

قال وهو مهمومًا :

- لن أغفر لنفسى ما فعلته معك.. وما حدث لى هو الجزاء الذى استحقه.

قالت مسرعة :

- لدى الحل الذى يجعلك تتخلص من إحساسك بالذنب.

تساءل بلهفة كالغريق الذى يبحث عن طوق النجاة :

- كيف.. أخبرينى به أرجوك؟!

- أن تحقق رغبة والدنا رحمة الله عليه.

تأمل وجهها فى صمت.. فأردفت قائلة :

- نحن نمتلك الآن ثلاثين فدانًا تقريبًا.. ولدينا رصيد فى البنك لا بأس به.. و..

قاطعها مرددًا :

- نحن !!

لاحقته بإصرار :

- نعم نحن.. أنا وأنت وأخوك خالد.. والدنا كان يتمنى أن تتولى أنت رعاية الأرض، والآن جاءت الفرصة لكى يرتاح فى قبره إذا ما حققت له أمنيته .

حاول أن يتكلم :

- يا لمياء .. أنا ..

ولكنها استوقفته .. واستطردت :

- انصت إلىّ جيدًا يا محمود.. نحن أشقاء والدماء التى تجرى فى عروقنا واحدة. وإذا كان الشيطان قد حاول أن يمزق ما بيننا فقد آن الآوان لكى نقهره.. وبالنسبة لى لن أشعر بالأمان أو السعادة مطلقًا، إذا كنتما فى مكان وأنا فى مكان آخر حتى لو ارتبطت بالإنسان الذى أريده.

همس بصدق :

- أنا أشعر بالخجل من نفسى.. وكم احتقر تصرفاتى السابقة معك.

قالت وهى تبتسم :

- من حقك أن تشعر بالخجل، لأنك لم تحتضنى إلى صدرك حتى هذه اللحظة وتشعرنى بدفء حنان الأخوة التى حُرمت منها طويلاً.. و..

وقبل أن تنهى كلماتها كان قد نهض مسرعًا وضمها إلى صدره وهو يقبل رأسها مرددًا بنبرة شجية :

- الآن أشعر بأننى لست يتيم الأم.. فأنت أعظم أخت فى الوجود.. وهنيئًا لأيمن فريد بزوجة صالحة وطاهرة مثلك.

ضحكت بسعادة.. وقالت وهى تدير نظرتها عنه خجلاً:

- أيمن فريد.. هو أيضًا أعتقد أنه رجل لا مثيل له فى الكون كله.

سألها بحماس :

- هل لديك فكرة عن موعد الزيارة عند خالد أخى؟

قالت بسعادة :

- نعم .. هى فى الأسبوع القادم.. وقد وعدت أم سعيد بأن تأتى معى لزيارته.

فاجأها قائلاً:

- يا ليت لو اصطحبنا معنا الأستاذ أيمن أيضًا .

رددت بكل بهجة :

- سيسعد كثيرًا بهذه الدعوة.. خاصة أنها منك شخصيًا.

تأهب للانصراف وهو يقول :

- سأذهب للقاهرة.. وأعود بعد يومين بكل متعلقاتى.. فأنا متحمس جدًا لعملى الجديد.

ارتسمت أسارير الرضى على ملامحها وهى تودعه قائلة بحب:

- سأنتظرك يا أخى.. فلا تتأخر.

وتركها منصرفًا.

ترك اللقاء أثرًا رائعًا فى وجدانها.. شعرت بالليالى تمد إليها يد المصالحة. فبدت كالفراشة الناعمة وهى تحلق فى فضاء الحرية بكل أمان وسعادة. تنقلت بين الزهور وكأنها فى حديث هامس معها، وتداعب الأغصان بأناملها الرقيقة كما تداعب الأم رضيعها.

تارة تحتضن جزع شجرة المانجو العجوز، وتارة أخرى تستند ببهجة على شجرة البرتقال، ثم تعود إلى هرولتها المنتظمة بين شجيرات الياسمين.

تمنت لو كان فى مقدورها أن تستجمع حولها كل طيور الكون المغردة. كانت سعادتها تسبق خطواتها وهى فى طريقها إلى أم سعيد. أخبرتها بالتطورات الجديدة، فرحت بشدة من ثناء المرأة عليها.. إحساس مدهش تغلغل إلى أعماقها بأنها ولدت من جديد، وكأنها بلا ماض أو ماض بلا أحداث.

فما أروع لحظات الرضى فى حياة الإنسان..!

توجت سعادتها بلقاء المصادفة مع أيمن فريد أثناء عودتها من زيارتها الأخيرة لأم سعيد.. أسرعت إليه بكل شوق وبادرته قائلة:

- وحشتنى.. انتظرت حضورك الاثنين الماضى كالعادة ولكنك للأسف لم تحضر.. ولا أعرف السر فى تعمدك لإغلاق تليفونك المحمول دائمًا.

ابتسم باتزان وأجاب بنبرة مبتهجة :

- أنا لم أتعمد ذلك.. ولكنك تعلمين ما حدث فى الأسابيع الماضية، جعل كل معارفى يلاحقوننى باستفساراتهم مما أرهق أعصابى.. ثم إننى قررت أن أفاجئك بأول منتج خاص بمصنعى بعيدًا عن التوكيلات الأخرى.

قالت بسعادة بالغة :

- هذا أجمل خبر سمعته منك.

مد يده إليها بزجاجة عطر مغلفة بشكل راق.. ثم قال بود صادق:

- وكان من المستحيل أن يحصل غيرك على باكورة ذلك المنتج.

تناولتها برفق وهى تتأمل وجهه بحب صريح.. ثم همست:

- سأحتفظ بها إلى آخر العمر.. ولن أفرط فيها أبدًا.

قال ضاحكًا:

- سيكون لديك المئات غيرها فيما بعد.. ولكن هذه بالذات أريدك أن تتعطرى بها الآن.. أمامى.. فرأيك أهم عندى من كل الجهات المستوردة.

بدأت فى التخلص من الغلاف الورقى وهى تردد قائلة :

- سأفعل بشرط أن تأتى لى بغيرها لكى احتفظ بها.

وما كادت تفرغ من ذلك، وظهر غلاف زجاجة العطر حتى فقدت السيطرة على اتزانها واقتربت منه وقبّلت وجنته، ثم تراجعت بعد أن تحولت بشرة وجهها بلون الدماء خجلاً.

كانت الزجاجة تحمل اسم «لمياء».

بينما تحسس هو وجنته بأنامله غير مصدق ما حدث منها، فتلك هى المرة الأولى التى تتجاوز فيها علاقاتهما مجرد الحوار.

وبنشوة تلقائية قالت :

- لأول مرة فى حياتى أشعر بأن هناك من يفكر فى أمرى.. أنت لا تعلم مدى إحساسى الآن بموقفك هذا.. إنها بالفعل أعظم لحظة أمان فى عمرى!!

أجاب بنبرة دافئة :

- لو كان الأمر بيدى.. لكنت حملت عنك مهمة تناول طعامك بيدك.

- أحبك يا أيمن.. أحبك يا أطهر قلب فى الوجود.. بالمناسبة أنا أيضًا عندى لك خبر سار.

- ما هو يا غالية ؟!

أسرعت تقول :

- محمود طلب منى أن أخبرك برغبته فى مرافقتنا أثناء زيارتنا لخالد.

قال بلهفة :

- أخيرًا سيتحقق حلمنا.. وسيجمعنا عش واحد.. و..

وقهقه بسعادة ثم استطرد قائلاً:

- ستصبح الاسكندرية عروس البحر الأبيض بحق عندما تعيشين بها.

تمتمت بلا إرادة :

- الاسكندرية!!

انتبه لدهشتها وتساءل برفق :

- ماذا بك يا حبيبتى.. فنحن لن تتقطع صلتنا بالمكان هنا.. على الأقل سنتواجد أسبوعيًا فى الڤيلا لكى نشرف على أعمالنا أيضًا.

افترشت الحيرة ملامحها قبل أن تقول فى تردد :

- ألا يمكن أن نؤجل ذلك القرار بعض الوقت؟!

أسرع يقول بدهشة :

- لماذا يا لمياء.. وما السر فى تغير موقفك؟!!

ازداد اضطرابها.. وأجابت بصوت منخفض:

- لقد جدت بعض الظروف الطارئة.. وقد تعهدت بتحمل مسئوليتها.

دقق النظر إليها وهو مشدوه فى صمت.. فأردفت قائلة:

- لقد اضطررت أن استبقى زوجة خالد وابنه معى بالڤيلا إلى حين أن يتم شفاؤها ويعود إليها ليتحمل مسئوليتهما.

تقلصت عضلات وجهه واكتأبت ملامحه.. ثم قال بهدوء مثير:

- وأنا.. ونحن ألم تفكرى فى مستقبل حياتنا.. لولا يقينى بأن مشاعرك صادقة لظننت أنك تتعمدين المراوغة.

أجابت بحسرة، وكأنها تحدث نفسها:

- لست أدرى لماذا القدر دائمًا يترصدنى بمسئوليات جديدة كلما فكرت أن أعيش حياتى الخاصة.. ولكن.. يجب أن تدرك جيدًا بأن لا شىء يمكنه أن يفرق بيننا إلا الموت.

قال باقتضاب:

- تقصدين إلا بالحب!!

همست بنبرة ضعيفة مرددة :

- الحب..!

- نعم الحب.. فسلطان الحب سيطر على كيانك وأعماقك وكل حواسك. حتى أصبحتِ لا تتحركين خطوة إلا بناء على توجيهات منه.. وكأنه كائن ملموس لديه القدرة على التحكم فى مسيرتك وبدون إرادتك وإن كان الأمر يبدو غير ذلك.

قالت مستسلمة :

- أنا متأكدة بأنك لو فى موقعى لكنت فعلت أكثر من ذلك.. فأنا أعرف طبيعتك جيدًا.. فأنت أيضًا كم ضحيت من أجل الآخرين بدافع الحب.

أجاب بجدية :

- لو كان المبرر أى شىء آخر لكنت فعلت المستحيل لكى أثنيك عن تصرفك هذا.. وربما كنت وضعتك أمام اختيارين.. ولكنى أقف عاجزًا أمام ذلك الإحساس المهيمن.. ولا أملك غير الرضوخ.

طفرت دمعة حائرة من بين جفنيها وهى تقول :

- علينا أن نتحمل قليلاً يا أيمن... فنحن لا نعلم ماذا تخبئ الليالى!!

- نعم لديك كل الحق.. فذلك يبدو قدر أمثالنا.

و.. استدار بهدوء يجر خطواته بصعوبة بالغة.. بينما سكنت هى فى مكانها تتابع انصرافه.. ثم همست إلى نفسها بنبرة أقرب إلى النحيب:

- رحماك يا قدرى، يا من زرعت الحب فى قلبى حتى امتلكنى.. فلا تعاقبنى به..!

تمت

الإصدارات الروائية للأديب أحمد فريد

همسة وداع	نشرت في ليبيا	1972
الشك	نشرت في ليبيا	1973
خطوات بلا طريق	نشرت في ليبيا	1975
نبضات لا تموت	مطبعة النهضة بالقاهرة	1976
الحب وحده لا يكفي	دار غريب بالقاهرة	1980
ممر الذئاب - ثلاثة أجزاء		
دعني أحاول	دار غريب بالقاهرة	1982
عندما يبكي الرجال	دار غريب بالقاهرة	1983
لا تدمرني معك	دار غريب بالقاهرة	1984
يا صديقي كم تساوي	دار غريب بالقاهرة	1985
لن تسرق حبي	دار غريب بالقاهرة	1987
سامحني يا حب	دار غريب بالقاهرة	1990
الحب الكبير- ثلاثة أجزاء		
هو منتهى الحب	دار قباء بالقاهرة	1994
عمر عمري	دار قباء بالقاهرة	2001
كذبت عليك فصدقني	دار قباء بالقاهرة	2002
يا أنا لا ترحل عني	دار قباء بالقاهرة	2004
حب بلا مأوى	دار قباء بالقاهرة	2005
الحب بعد المساومة	دار قباء بالقاهرة	2006
لآلئ الوحل	دار قباء بالقاهرة	2007
من يشترى عمرى	در قباء بالقاهرة	2008

- دار قباء أعادت طبع جميع الأعمال الروائية.
- حصل على جائزة مهرجان القاهرة السينمائى عام 1982 عن أحسن قصة لفيلم «الحب وحده .. لا يكفى».. إخراج على عبدالخالق .
- ترجمة رواية «الحب.. وحده.. لا يكفى» ورواية «عندما يبكى.. الرجال» إلى اللغة الصينية.
- تمت ترجمة رواية «هو منتهى الحب» إلى الإنجليزية.
- صدرت الطبعة الثالثة من رواية «هو منتهى الحب» فى كتاب الجمهورية .

• الأعمال التى تحولت إلى أفلام سينمائية:

- « الحب وحده .. لا يكفى ».. إخراج على عبد الخالق - سيناريو وحوار «مصطفى محرم».
- « عندما يبكى .. الرجال» .. إخراج حسام الدين مصطفى.. سيناريوم «مصطفى محرم» وحوار «بهجت قمر».
- « لا تدمرنى معك» إخراج محمد عبد العزيز .. سيناريو وحوار «أحمد صالح».
- «يا صديقى كم تساوى».. إخراج يوسف فرنسيس .. سيناريو وحوار «يوسف فرنسيس».
- عضو اتحاد الكتاب منذ بدايته.
- عضو نادى القصة .
- عضو الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما.
- عضو رابطة الأدب الحديث.